

غالبية خوجة

الفصول المجنونة

- قصص للأطفال -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق - ٢٠٠١

الإهداء

إلى كلّ الأطفال الذين ولدوا
وسيوولدون
ولم يولدوا بعد..

إلى براءتهم
وهي تكبر
مع براءة الكلمات

لتظللّ تقرأ هذه القصص..

كلمات البحر

خلف الجبال،

كان البحرُ يُلاطمُ الصخورَ والشواطئ.. يُوزَّعُ
على الرمالِ والحصى أمواجهُ، وأصواته،
وحكاياته الكثيرة التي لم يسمعها أحد.
ما زال البحر بين المدِّ والجزر..
للبحرِ قصصٌ يرويها كلَّ يوم، يتناقلها الموجُ

والرملُ والحصى والفضاء والنجوم والليل
والنهار..

-ألا تسمع تلك الوشوشةَ يا عصام؟

-تقصدين أصواتَ الأمواج؟

-بالضبط.. هل تستطيع أن تتخيلَ ما ستحكيه
لنا الأمواجُ؟: أسألكَ أنا كاتبةُ القصة، فتشردُ وأنتَ
تقرأ، وبسرعة تجيبيني:

-ربّما تقول الأمواجُ: أنا حزينةٌ لأنّ البشرَ
يلوثون مياهي.. فالأوساخ والنفايات تُزعجني..
أو، تقول: أنا فرحةٌ لأنكم تعرفون السباحة،
فتزورونني في العطل.. تلعبون، وتمرحون،
وتبتهجون، فأمرح وألعب وأبتهج معكم.

تصمتُ قليلاً وتُفكّر.. فأسألكَ:

-فقط هذه هي كلمات البحر؟!

تنظر إليّ بعمق، وتجيب:

-أتوقّع أنّ البحرَ مليءٌ بحكاياتٍ قديمةٍ وجديدةٍ
مثلما هو مليءٌ بالمرجانِ والأسماكِ والمحارِ
والنباتاتِ والأسرارِ.. أذكرُ ما حكتهُ لي جدّتي ذاتِ
يومٍ.

-وماذا حكّتْ جدّتكْ؟

تنظرُ في المدى مُستذكِّراً، ثمّ..، تسردُ لي:

-ذاتِ يومٍ،

قضينا نزهتتنا في أحدِ الجبالِ المشرفةِ على
البحرِ.. كانتِ الأشجارُ كثيفةً، والأعشابُ تهتزُّ مع
الهواءِ.. والأزهارُ البريئةُ تفتشُ التربةَ بألوانٍ
متعددةٍ تشعركِ وكأنّ العطرَ يفيضُ بالأخضرِ
والأزرقِ والأحمرِ والليلكيِ والأبيضِ والأصفرِ
والبرتقاليِّ.. لعبنا بالمضاربِ.. والكرةِ،
والأرجوحةِ التي نصبها والذي بين شجرتينِ
عملاقتينِ.. وعندما تعبنا جلسنا للطعامِ.. بعدَ ذلكِ،
رحنا نتأملُ الطبيعةِ.. الدعسوقاتِ الحمراءِ المنقطةِ

بالأسود كانت تسير على التربة، بين الحشائش،
وعلى الجذوع والأغصان.. صوت العصافير
والنوارس كان أنشودةً تشترك في تأليفها وعزفها
أصوات الرياح التي تسقط بعض حبات التوت
البرّي عن الأشجار.. يومها.. ركضت وراء
الفرشات.. راقبت النمل وهو يعمل دون تعب..
حدقت إلى السماء الجميلة وهي تحضن الشمس
الذهبية.. طيورٌ كثيرة ومنتوعة كانت تحلق..
وفجأة..

سمعتُ صراخَ أمي.. ركض أبي وأخوتي
وجدتي.. ركضت إليهم.. كاد أخي الصغير يغرق
لو لم يرم أبي نفسه في البحر وينتشله من الموج..
وبعدما حمدنا الله على سلامة أخي، قالت جدتي:
البحر يحب الإنسان الجريء. البحارة
والصيادون والغواصون أصدقاءً الموج.. لأنهم
شجعان.. وأنتم أيضاً..

- وهل أنا مثلهم شجاع يا جدتي؟: سأل أخي الصغير الذي ارتاح قليلاً بعد الإنقاذ.

قالت جدتي:

- طبعاً وأنت أيضاً لأنك غامرتَ وخضتَ في البحر.. لكن، مَنْ لا يُجيدُ السباحة، عليه أن لا ينزل وحيداً إلى الموج، لأنه سيغرق.. وسيُسببُ لأهله حزناً دائماً..

لحظتها، خجلَ أخي واعتذر للجميع، هنا، تدخلت جدتي ونظرت إلينا قائلة:

- سأروي لكم حكايةً عن البحر.

سكتنا كلنا، وأصغينا بانتباه وشوقٍ شديدين لكلماتِ الجدة المصحوبةِ بسعالٍ خفيف:

- في سالف الأزمان،

كان البحر دائمَ التوترِ والهيجان، يُغرق البشرَ والمراكب.. وكانت مدينةً من المدائن القديمة

تُعاني كثيراً من هذه المأساة.. لم يُفلح السحرةُ
والمشعوذون في تهدئة البحر..
وعندما احتار أهل تلك المدينة في أمرهم..
أرسلوا وفداً منهم إلى المعبد..
كان كاهنُ المعبد رجلاً عجوزاً، مُلتحياً، طويلَ
القامة. فتَحَ للوفدِ بوابةَ المعبدِ المزخرفة، المضاءة
بالشموع، واستقبلَهُ في قاعةٍ يتصدرها تمثالٌ
ضخم..

قال أكبر رجلٍ من الوفد:

-أيها الكاهن، ألا تعلم كيف نكسب صداقةَ
البحر؟

هزَّ الكاهنُ رأسَهُ، فارتجفتُ لحيتهُ، وتمايلَ
لهبُ الشموعِ القريبة من التمثال. وبوقارٍ، حركَ
شفنِيه:

-أعلم كيف يكسب الإنسان صداقة البحر..

- ما دمتَ تعلم، فلماذا تدعنا نُلَاقِي كلَّ تلك الكوارث؟: سأل واحدٌ من الوفد.

صمتٌ مخيفٌ ساد في القاعة، لم يقطعهُ غيرُ خطواتِ الكاهن الذي دخلَ إلى غرفةٍ أخرى، ثم خرجَ ومعه حمامة..

جلس الكاهن على كرسيه، حاضناً الحمامة بيديه، وقال:

- إنَّ البحرَ يطلبُ أضحيةً.

- نحن مستعدون: بصوت واحد، قال أفرادُ الوفد.

- ولكنها أضحيةٌ بشرية.. عليكم أنْ تضحوا بشخصٍ منكم كلَّ سنة.

ارتبكَ رجالُ الوفد. تشاوروا في كلامِ الكاهن، ثم وقفَ كبيرُهُم ليقول:

- نحن موافقون.. فمَنْ منَّا سيكون الأضحية

الأولى؟

قال الكاهن:

- هذا ما سيقرّره التمثال. سأطلق الحمامة في فضاء القاعة، ستدور ثلاث مرّات حول رؤوسنا، وستقف على رأس التمثال.. فإذا تحرك رأس التمثال نحو اليمين ونزفت عينه اليسرى دماً، فيعني ذلك أنّ البحر يريد دائماً ابنة واحد من أهل المدينة، وإذا تحرك رأسه نحو الشمال وذرفت عينه اليمنى دماً، فهذا يعني أنّ البحر يريد دائماً ابن واحد من أهل المدينة.

- وما المقصود بـ(دائماً)؟: استفهم رجل متوسّط العمر.

- أي، على أهل المدينة أن يضحوا كلّ سنة بفتاة إذا تحرك رأس التمثال نحو اليمين، بينما يضحون كلّ سنة بفتى إذا تحرك رأس التمثال نحو الشمال.

ولما قبلَ الوَفْدُ بهذا الحل، أطلق الكاهن
الحمامة..

رَفَّتِ الحمامةُ البيضاءُ المكحلَّةُ بسوادٍ شفيفٍ
في فضاءِ القاعة، دارتُ ثلاثَ مراتٍ حولَ
الرؤوس، وما إنْ وقفتُ على رأسِ التمثال، حتى
استدار نحو اليمين ونزفتُ عينهُ اليسرى دماً سالٍ
على وجه التمثال وذقنه وخصره وقدميه..
شكلَ الدمُ بقعةً كبيرةً..

ولم يتوقف النزيف حتى طارتِ الحمامة عائدةً
إلى الغرفة.

- وكيف سنختار الأضحية؟

أجاب الكاهن:

- بعد ثلاثة أيام، وقبل الغروب بقليل،
تجمعون كلَّ فتيات المدينة على أحد الشواطئ،

وسأطلقُ الحمامة.. والفتاةُ التي تقفُ الحمامة على
رأسها ستكون الأضحية المباركة.

رضي الوفد بهذا القَدَر. ودَّعوا الكاهن،
وبمنتهى الحزن، رجعوا من حيث أتوا..

كان الناس ينتظرون.. وصلَ الوفدُ، وأخبرَ
سكان المدينة بالحلّ..

ثلاثة أيام سوداء مرّت على المدينة.. خلالها،
لم يخرج أحدٌ من بيته.. كلُّ عائلة كانت تودّع
بناتها الوداع الأخير..
انتهت المهلةُ،

وفي اليوم الثالث كانت فتياتُ المدينة مجتمعات
على الشاطئ الرملي.. بينما اصطفَّ أهل المدينة
مثل سور عظيمٍ حول الفتيات..

كان الأهل يجهدون بالبكاء.. والفتيات كُنَّ
ينظرنَ بحُزنٍ وخوفٍ.. وحدَها ابنةُ الملك كانت

تبكي..

بعد قليل،

سيكون الغروب ضيفاً على البحر والجبال
والغابات والصحارى والقرى والمدن..
وصل الكاهن ومعه الحمامة..

ازداد الرعبُ في قلوب الجميع، ما عدا فتاة
واحدة بدأت تبتسم.. وبين سكونِ الناسِ وصوتِ
البحر، أطلق الكاهنُ الحمامة..

حلقت الحمامة بعيداً.. فوق المراكب الراسية،
فوق أشجار الغابة القريبة، فوق الرؤوس..
كانت أشعةُ الغروب تتخلل أجنحة الحمامة
وتصل إلى الموج وعيونِ الناسِ.

بسرعة أكبر، حلقت الحمامة فوق رؤوس
الفتيات.. حلقت مرتين، وفي الثالثة حطت على
رأس الفتاة المبتسمة.. فصرخ أبواها وركضا

إليها..

كانت الفتاة ابنة وحيدة لعائلة فقيرة.. علّمتها
أمها الصبر، ووالدها الصياد علّمها كيف لا تخاف
البحر..

وقبل أن يصل والداها إليها، رمّت الفتاة نفسها
في الموج و.. سبحت..

موجة تغطّيها، موجة تقذفها، وموجة تسحبها
إلى أعماقها.. سبحت الفتاة حتى غابت عن
العيون. أمّ الفتاة كانت تذرّو الرمل على رأسها
وتصرخ.. ووالدها كان يبكي بحرقة وهو يحذق
في الموج.. كان أهل المدينة يهوتون مصاب
الرجل والمرأة.. وكانت أشعة الغروب تخفت
تدرجياً.. تخفت حتى تغيب الشمس ويظهر الليل
كجثة هامدة..

لم يكن يضيء العتمة سوى مشاعل قليلة..

وبينما همَّ الجميع بالعودة إلى منازلهم، هَدَرَ
البحر، ولمع من موجاته ضوءٌ هائل كأنه القمرُ
يسقط الآن من مكانه ليسبح..

التفتَ الناس إلى البحر.. لم تمتِ الفتاة، بل،
تحوّلت إلى حوريةٍ ضوءٍ تتقدم نحو الشاطئ..
تذرف دمعاً يصير لؤلؤاً..

ركض والدا الفتاة إليها، لكنها.. عادت إلى
أعماق البحر.. حاول أبوها الصيادُ أن يرمي نفسه
في الماء.. أمسكتُه زوجته وأمسكهُ الناس.. حينها،
صاح الكاهن:

-هيا.. وليأخذ كلُّ منكم نصيبه من اللآلئ.
بعدما جمع كلُّ منهم ما كفيه من اللآلئ، غادر
الجميعُ الشاطئ اللؤلؤيَّ عائدين إلى المدينة..
كانوا موكباً حائراً يعبرُ الطرقات..
منذ تلك الليلة،

لم يُعَدِّ البحرُ يُغرقُ الكثير من البشر
والمراكب، ولم يُعَدِّ بحاجة إلى الأضاحي..

منذ تلك الليلة،

وحوريةُ الضوء تزور مدينتها (مدينة اللؤلؤ)
كلَّ سنة مرَّةً.. تبكي، تاركةً دموعها لآلئ على
الشواطئ وفي المحار..

- حكايةُ جدتكِ اختصرتُ كلَّ كلامِ الموج يا

عصام.

- هل أعجبتك..؟

وقبل أن أجيب،

يقترب البحر منا.. باستحياء ينظر إلينا..
يرشقنا بموجة خفيفة، ثم يعود إلى مكانه.. هناك..
خلف الجبال، ليُلاطمَ الصخور والشواطئ، ويوزع
على الرمال والحصى والفضاء حكاياته الكثيرة..



أين أمي؟

غداً عيد الأمّ.

وها هي (ساندي) تجلس حائرة بين كتبها،
تفكر كيف ستشترى لأمّها هديةً وهي لا تملك
نقوداً.

أبوها يعمل بإخلاصٍ وجد ونشاط، ومع ذلك،
عائلتها فقيرة.

كانت (ساندي) تلميذةً مجدةً ومهذبةً ومحبوبةً
من مدرّساتها وصديقاتها.

كانت صديقتها (ندى) قد اشترت لوالدتها خاتماً
ذهبياً أحضرتُه معها إلى المدرسة لتُريه لزميلاتها.
كان الخاتم يلمع مثل شمس تتوسّطُ الموجَ.
تحسّرت ساندي وهي تحقّق في الخاتم المتوهّج،
وفي هدايا صديقاتها الأخريات. (فاطمة) اشترت
قميصاً حريرياً لأُمها. (عبير) اشترت عطراً.
و(ريما) اشترت حقيبةً جميلةً. وحدها (عنود)
اشترت لأُمها كتاباً.

ما زالت ساندي في غرفتها حزينةً، تنظر
حولها، فيقعُ بصرها على قصة (سندريلا) تتناول
القصة وتبدأُ تقرأها، وما إنْ تصل إلى الفقرة التي
تظهر فيها الساحرة لسندريلا، حتى تغلقَ القصة،
وتحلم بزيارة الساحرة كي تطلب منها هدية لأُمها.
لن يكلفَ طلبي أكثر من كلمتين تتفخهما

الساحرة على عصاها لتكون هديتي موجودة:
همست ساندي لنفسها بحزن، وعادت لتفتح القصة،
ثم ارتفع صوتها: أيتها الساحرة، أرجوك اخرجي
من قصة سندريلا إلي. لن أطلب منك غير كتاب
لأمي، أو فستان بسيط:

قالت ساندي وهي تفتح قصة سندريلا
وتخاطب الصفحة التي رُسمت فيها الساحرة..
فجأة، تخرج الساحرة من الصفحة.

الساحرة بفستانها الجميل، وبتاجها الذهبي
المُرصع باللؤلؤ والعقيق، وبصوّلجانها السحري
تقف على طاولة ساندي المسحورة بحضورها. لا
تُصدّق ساندي ذلك، فتنظر إلى الصفحة، فتجدها
بيضاء، فعلاً غادرت الساحرة مكانها.

تدلك ساندي عينيها قائلةً:

- هل أنتِ ساحرةٌ حقيقيةٌ؟

-أظنني كذلك يا عزيزتي، أسمعِين صوتي؟
-نعم، أسمعك، وما دمت قد استجبت لي في
الحضور، فأرجوك أن تُلبِّي لي طلباً بسيطاً.
-لقد خرجتُ لألبي لك طلبك:
قالت الساحرة وأشارتُ بصولجانها اللامع إلى
علبة ألوان ساندي، وإلى ورقة كرتون مقوى، ثم
اختفت بالسرعة التي ظهرت فيها ذاتها.
حدقتُ ساندي في الصفحة، فرأت الساحرة في
مكانها تقف جامدة أمام سندريلا.
-أين الهدية؟ صاحت ساندي في وجه
الساحرة، ثم وضعتِ القصة على الطاولة وشرعتُ
تبكي..
لم تغادر الساحرة مكانها مرةً ثانية.
مسحتُ ساندي دموعها، وانتظرتِ الساحرة
دون أمل.

بعد لحظات،

فكرت ساندي بإشارات صولجان الساحرة،
فقفزت إلى علبة الألوان، أحضرتها مع ورقة
الكرتون المقوى، وبدأت ترسم.. لم تنهض ساندي
عن طاولتها إلا بعدما رسمت وردة وقلبا وطفلة
تُقدّم لأمها هدية.

ابتسمت ساندي للبطاقة التي أصبحت جاهزة،
وبعد منتصف الليل ذهبت إلى فراشها لتحلم بفرح
أمها.

في الصباح،

ارتدت ساندي ثيابها، حملت حقيبتها، وذهبت
إلى المدرسة..

ها هي وصديقاتها في الاستراحة. تفتح ساندي
حقيبتها، وتخرج البطاقة..

-أوه، ما أجملها يا ساندي، من أين اشتريتها؟

بصوت واحد قالت صديقاتها.
-لم أشرها، بل أنا التي صنعتها.
-حقاً، أنت رسمتها! يا لك من فنانة. قالت
عنود.

-أنت لست متفوقة فقط، بل أنت فنانة يا
ساندي. قالت ندى وريما وعبير وفاطمة.
ضحكت ساندي من كل قلبها لما أنجزتة،
فضحكت معها صديقاتها.

-أقترح أن ترسمي بطاقاتٍ وتبيعيها يا
ساندي. قالت عبير.

-فكرة جيدة. قالت فاطمة.

-وأنا أول من ستشتري منك يا ساندي. قالت
ندى وهي تُخرج من جيبها بضع أوراق نقدية.
عندئذٍ، أخرجت كلُّ صديقات ساندي أوراقاً
نقدية.

عدت ساندي النقود، فوجدتها كافية لشراء
فستان بسيط لأمها.

-أنا موافقة، وغداً سأحضر لكل منكن بطاقة.

لم تعرف ساندي كيف انتهى ذلك اليوم
المدرسي، كما لم تعرف كيف كانت واقفةً أمام أحد
المحلات، تنتظر إلى الفساتين وأسعارها.. بين تلك
الأزياء تشاهد فستاناً مناسباً، فتدخل لتشتريه قائلة
في نفسها:

اليوم سأصنع كثيراً من البطاقات، وسأرسمها
بمهارة فنية بحيث تُعجب بها زميلاتي.

ساندي الآن تخرج من محل الأزياء وهي
فرحة بهديتها التي لم تدفع فيها كل ما معها من
نقود.. وبينما تركض في الشارع المليء بدكاكين
الحلوى والملابس والألعاب، يُلفت نظرها دكان
لبيع الورد، فتدخل وتشتري وردة جميلة، ثم
تركض قاصدة البيت..

.. كانت حذرةً من السيارات، حذرةً من أن
تصطدمَ بأحد المارة، حذرةً من أن تسقط..
تصل ساندي إلى البيت وهي تُنادي:
-ماما، ماما، كل عام وأنت بخير.

لا أحد في البيت.

ليس من عادة والدة ساندي الخروج في مثل
هذا الوقت من البيت.

-تُرى، أين أمي؟ صاحت ساندي وأجهشت في
البكاء.

أكثر من ساعة وهي تنتظر. خطر على بالها
أن تسأل الجيران عن أمها. للأسف جميع الجيران
لم يروا والدتها طوال هذا اليوم.

عادت ساندي إلى البيت وهي تنادي بأعلى
صوتها:

-ماما، ماما، أين أنتِ يا أمي؟

وما إن دخلتُ ساندي البيت حتى وجدتُ أمَّها
ترتدي الفستان الذي اشترتهُ لها.
ركضت الفتاة إلى أمها ضاحكة.
أحضان الأم كانت أكثر دفئاً وجمالاً من كل
حدائق الورد في العالم.

-كم هو جميل عليك. قالت ساندي.
-إنه جميل فقط لأنك أنت التي اخترتِه، يا
روحي.

قبَّلتُ ساندي يد والدتها، وذهبتُ إلى غرفتها
لتُحضر بطاقتها التي رسمتها.
ها هي ساندي تعود حاملةً الورد والبطاقة.
تُقبلها أمُّها شاكرةً، وتقول:
-لماذا نسيت هديتي التي أحضرتها لك؟
-عفواً أمي، لم أنتبه، أين هي؟

-هناك، على الطاولة.

تركض ساندي إلى هديتها المغلفة بورق ملون
لامع. تفتح جزءاً من الغلاف، فتجد كتاباً، وبينما
تستمرُّ ساندي في خلع الورق، تقول:
لم أتوقَّع أن يكون لي هدية في مثل هذا اليوم.
يا لك من إنسانة رائعة يا أمي.
في هذه الأثناء،

تدخل الأم المطبخ لإعداد ما يلزم للاحتفال.
بينما ساندي تقفز من شدة الفرح وهي تقول:
-الله، ما أجمل هديتك يا أمي.. الله، مجموعة
قصص بعنوان (الفصول المجنونة)..



النأي والحوريّة

كان يا ما كان ...

في سالف العصر،

أو في هذا الزمان..

كانت هناك قريةً ساحليّةً جميلةً، يوقظها غناءُ
الأطيّار والعصافير والبلابل، وأشجارها المتنوعة،
اعتادتُ على أصوات الحيوانات، وعلى أصوات

الناس، وعلى هدير البحر ورائحة المالحه.
..مشهدُ البحرِ رائعٌ في كل الأوقات، وفي كل
الفصول.. والأمواجُ دائماً تحمل المراكب...
لم ترجع شباكُ الصيادين، يوماً، بلا سمك.
وكانت في هذه القرية ابنةً وحيدة لأبوين
فلاحين، تقضي أوقاتها بين المدرسة والحقل
والشاطئ.

وكلّ صباح،

تستيقظ مع صياح الديك، تُطعم الدجاجات،
وتعلم الغنم، ثم تذهب إلى المدرسة. وحين تعود،
تتناول وجبة غذائها بسرعة، تكتب وظائفها... بعد
ذلك، تلحق بوالديها إلى الحقل. وعندما لا تجد ما
تساعدهما به، تحمل الناي وتذهب إلى الشاطئ..
تلعب بالرمل والحصى. تصنع أشكالاً مختلفة..
وإذ تتعب، تجلس على الرمال القريبة من الموج،

وتعزف على نايتها ألعاناً مُحزنةً حيناً، ومُفرحةً
حيناً آخر..

وفي أحد الأيام،

وحيدةً، جلست الفتاة على الشاطئ، وأصابعها
الناعمة تتحرك على فتحات الناي.. هنا، لحظة ما
قبل الغروب منعشة، والمراكب الراسية تميل مع
الموجات، والمراكب البعيدة تغيب رويداً، رويداً،
عن ناظرها...

وبينما تعزف..، نحسها تفكر بحكاية أمها التي
روتها لها منذ فترة، حيث شاب الحكاية أراد أن
يصبح أغنى إنسان في العالم، فلبت رغبته جنية أو
ساحرة، وجعلت من أنامله لغزاً، كان كل ما يلمسه
يتحول ذهباً، حتى الخبز والطعام الذي سيأكله...
تعزف وهي تقول في نفسها:

=أنا أكره الطمع والجشع والأنانية وحُب
المال. وكل ما أريده أن أجد شيئاً في هذه الحياة

يكون أهمّ من كل شيء. أعرف أنّ الأرض مهمّة،
والبحر مهمّ، والطبيعة مهمة، لكنني أريد أن أكون
إنسانةً مهمّةً أكثر ممّا أنا عليه الآن.

تعزف الفتاة بكل حواسها وكأنها تعزف كلّ ما
تفكر وتحلم به.

وبينما هي منسجمة مع الألحان والبحر وما
يجول في نفسها، تشعر بصوت ما يناديها، لم يكن
صوت أمها ولا أبيها.

- أنت.. هل تحبين المغامرات؟

- أوه، ما أجملك، أنت حورية البحر، أليس
كذلك؟: سألت الفتاة، وهي تقفز نحو الموج.

- نعم، أنا حورية البحر، هل ترغبين برحلة
إلى أعماق البحر؟

= بالتأكيد، لكن أرجوك أن أعود إلى هنا بعد
ساعة، أخشى أن أسبّب المتاعب لوالديّ.

-لن تستغرق رحلتنا أكثر من ساعة: قالت
الهورية الجميلة وهي تُبعد شعرها عن جبينها،
وترفع ذيلها فوق الماء، ثم تسبح مقتربةً من الفتاة
التي غطت نايها بالرمل، ومشت حتى غمر الموجُ
ركبتها.

-هات يدك: قالت الهورية للفتاة.
أعطت الفتاة يدها للهورية التي ألبستها خاتماً
قائلة:

=لن تستطيعي الغوصَ والعودةَ إلى مكانك إلاَّ
بهذا الخاتم السحريِّ، فانتبهي جيداً، وكوني
حريصةً عليه كإصبعٍ من أصابعك.

-يا له من خاتم رائع: قالت الفتاة.

-هل أنت جاهزة؟: سألتها الهورية.

-هيا إلى أعماق البحر..

وضعت الهورية أصابع إحدى يديها بأصابع

إحدى يديّ الفتاة، ونزلتا تحت الموج. الأسماك
بزعانفها وألوانها وأحجامها المختلفة تمرُّ قرب
الصديقتين، وقناديل البحر تضمُّ أذرُعها ثم
تبسطها.

الموج هادئ في الأعماق.

وصلت الحورية والفتاة إلى شعاب مرجانية
كثيفة وطويلة. مرجان أبيض ومرجان أحمر، بينما
تمرُّ أسماك صغيرة ملونة.

كلّ ما في البحر من مياه وحيوانات ونباتات،
كان صديقاً للحورية، يُسلم عليها، ويسألها عن
صحتها وأحوالها ويُرحّب بصديقتها الجديدة..

بين تلك الشعاب المرجانية توجدُ فسحةٌ تُنيرها
محاراتٌ مفتوحة. تجلس الحورية مع الفتاة في تلك
الفسحة، فتفتح المحاراتُ أغلفتها وتغلقها، وكأنها
تعزفُ ألحانَ الفتاة التي كانت تعزفها على نايها
قبل وصولها إلى هذه الأعماق.

تضحك الفتاة، وتقول:

- إنها ألحاني.

تقول لها الصدفاتُ والهوريةُ:

-لولا هذه الألحان، لما كنت الآن بيننا.

نحن دعوناك لزيارتنا لأننا فهمنا ما تعلمين

به.

لم تتوقع الفتاة ذلك، ففرحت كثيراً، وقبلت

الهورية والمحارات.

- إليك هذه الأسهم الثلاثة وهذا القوس: قالت

ملكة المحارات.

مستغربة، أخذت الفتاة القوسَ والأسهم.

-لا تخافي ولا تستغربي، فهذه الأشياء ستحقق

حلمك: قالت الهورية.

-وكيف؟ سألت الفتاة.

بهدهوء أجابت ملكة الأصداف:

-ستوصلك الحورية إلى كهف البحر، ستجدينه مغلقاً بصخرة كبيرة، في الصخرة ثقبٌ، عليك أن تصيبي سهماً في ثقب الصخرة، ولديك ثلاث محاولات بعدد الأسهم، فإذا لم ينجح سهمك الأول، فستحجرُ قدمك، وإن لم ينجح سهمك الثاني فسيحجر جسمك حتى الصدر، وإن لم ينجح سهمك الثالث، فستحجرين كلك، وستصبحين مستحاةً بحريةً.

-وإذا نجحتُ من السهم الأول: قالت الفتاة بتحدُّ.

-عندما تتجحين بأيّ سهم من هذه الأسهم الثلاثة، فستبتعد الصخرة عن فوهة الكهف، وستدخلينه بسرعة، لتحضري ما هو موجود فيه.

-هل سأجد في الكهف حلمي وهو مختبئٌ مني؟ ما هذه الخرافة، لا، لا أريد أن أغامر، بل

أريد أن أعود إلى الشاطئ. أفضل أن أعيش حياتي مع أمي وأبي في قريتي الجميلة، لا أريد أن أصبح مستحاثة بحرية: قالت الفتاة بعصبية، وهي تهمّ بالمغادرة.

لكن حورية البحر حاولت إقناعها:

- أنت شجاعة، ولا أظنك ستفشلين، كما أني لا أظنك ستهربين.

ترددت الفتاة، وحاولت استجماع قوتها لتسأل:

- وما الشيء المهم الذي سأغامر من أجله بحياتي؟ إذا كان مالاً، فأنا لا أريده.

= لا إنه أهم من كل شيء تفكرين به: قالت ملكة الأصداف.

فكرت الفتاة ملياً.. وبكل إرادتها اختارت أن تتابع الطريق الذي يوصلها إلى الحلم. قبلت الفتاة المغامرة وسبحت مع الحورية إلى الكهف البحريّ

المتنبّت بقاع البحر كحوت كبير. أمام صخرة
الكهف عظام بشر كثيرين، وأشخاص متحجّرون
كمستحاثات بحرية، بعضها رخو، وبعضها صلب.
- آه، أيتها الحورية، يبدو أنك خدعت أناساً
كثيرين.

لوت الحورية ذيلها، وقفت أمام الفتاة معاتبية:
- أنا لا أخدع أصدقائي، أنت الوحيدة التي
أتيت بها إلى هنا.
- هؤلاء المساكين المتحجرون؟: سألت الفتاة
بقسوة.

- حضرهم سمك القرش، وأغلبهم من
الصيادين الذين كانوا يرمون شباكهم، فيشدّها سمك
القرش، ويحضرهم إلى هنا، منهم من غرق،
فدفناه، ومنهم من أعطته ملكة الأصداف الأسهم
والقوس، علّه يستطيع الخروج والعودة. لم أكن أنا

- موجودةً في هذا البحر .
- صدقتك، فهل ستتركيني وتعودين، أم سأبدأ وأنت معي؟: بثقة قالت الفتاة.
- لأثبت لك طيبة قلبي وصدق نواياي، فأنا سأساعدك حتى لو تحجرت.
- كيف؟ بانفراج سألت الفتاة.
- هات الخاتم.
- كيف أعطيك الخاتم الذي سيساعدني في العودة؟.
- إذا ظلّ الخاتم في إصبعيك فسيتحجّر معك، أمّا إذا كان معي وتحجرت، فبمجرد أن ألمسك به فسيتلاشى الحجر عنك، وتعودين كما أنت.
- اقتتعت الفتاة بصدق الحورية وإخلاصها، فناولتها الخاتم، ووقفت كفارسٍ في مكان مناسب من ثقب صخرة الكهف.

وقبل أن تضع السهم الأول في القوس، نظرتُ
إلى المقبرة البشرية الراقدة في أعماق البحر.
وضعت السهم في القوس. حدّقت في الثقب،
و.. أطلقتُ... لكنّ السهمَ اصطدم بالصخرة،
وسقط قرب جمجمة ما...
تحرّرتُ ساقا الفتاة.

وببطء، بدأ الدمع يتساقط من
عينها..

- لا تأبهي، هيا حاولي ثانية: تصرخ الحورية.
بشجاعة، وضعت الفتاة السهم الثاني في
القوس، وشدّته بقوة، ثم أطلقتته..
اصطدم السهم بحافة الثقب.. كاد يدخل، لكنه
سقط، و.. تحرّرتُ صدر الفتاة حتى إبطيها...
- اطمئني، فالخاتم سيعيدك: بفرح وتشجيع
قالت الحورية.

هذه المرة، بفرح تطلق الفتاة سهمها الثالث
والأخير، وإذ به يصيب الثقب..، فتتزعزع
الصخرة العملاقة..، يذوب الحجر عن قدمي الفتاة
وصدرها، وقبل أن تدخل الفتاة الكهف، تعيد
الهوريية الخاتم إليها قائلة:
- سندخل معاً.

تدخل الصديقتان الكهف البحريّ.
لم يكن فيه غيرُ صخورٍ ملوّنة، ونباتاتٍ
مضيئةٍ وغريبة.
لم تترك الحورية يدَ الفتاة.
وبعد مسافة، رأت الفتاة شيئاً، فصاحت:
- لقد وجدتُ حلمي.

على صدى صوتها، اجتمعت كائناتُ البحر
من سمكٍ ومرجانٍ وسراخس، حتى المحارات
وملكتهم، وكذلك قنفاذٍ وقناديل البحر.

تحمل الفتاة ذاك الشيء اللامع، تحديق فيه،
فتراه قلماً ذهبياً، وبينما تتفحص القلم، يأتيها صوت
الهورية:

- الأجل من الذهب في هذا القلم أنه يستطيع
قراءة أفكارنا، وإذا لم تصدقي، فاضغطي الزرّ
الأعلى في القلم، وستكتشفين كيف يقرأ ما تفكرين
به الآن.

وما إن تضغط الفتاة على الزرّ الأعلى للقلم،
حتى ينطق:

- أنت يا عزيزتي تفكرين كيف بوساطتي
ستكتشفين وتفضحين المنافق والكاذب والغشاش.

بسرعة تقول الفتاة:

- صدقت يا عزيزي.. ففي هذه اللحظة
بالذات، كنت أفكر بما قرأته لي.

- هل أدركت أين يكمن حلمك؟ أين تكمن أهم

الأشياء في الحياة؟: سألت ملكة المحار.
- لقد أدركتُ أنّ العلم والعمل والصدق
والحرية أهمّ ما في الحياة.. شكراً لكم جميعاً..
قالت الفتاة العائدة مع كائنات البحر إلى السطح.
كان الجميع يرقص حولها، ويودّعها بمحبة..
كلهم كانوا راغبين بعودتها إليهم.
تصل الفتاة الشاطئ... تعيد الخاتم السحريّ
إلى الحورية، تقبلها، وتتفقان على زيارة أخرى.
رفعت الفتاة نايها من الرمال، وركضت
بسرعة عائدة إلى بيتها، وبيدها القلم الذهبيّ
الكاشف، الكاتب، والقارئ، بيدها أغلى وأهمّ شيء
في هذه الحياة، لم تستغرق رحلة الفتاة في أعماق
البحر أكثر من ساعة، لكنها قابلةٌ لأن تُحكى على
مدى الأيام.. أليس كذلك؟.



الخنساء في الحديقة

اعتدنا أن نذهب كل يوم جمعة إلى مكان
نختاره معاً. كأن نزور أقرباءنا، أو أصدقاءنا، أو
نذهب إلى منطقة أثرية نتعرف من خلالها على
حضارتنا، أو نقضي وقتاً جميلاً وممتعاً في مكان
طبيعي قريب من مدينتنا..

وحيثما تختلف أسرتي على المكان الذي
سنذهب إليه، نلجأ للقرعة، كل فرد منا يكتب

رغبته على قطعة ورق صغيرة ويطويها، ثم نخلط جميع الأوراق خلطاً عشوائياً، ونترك أصغرَ طفلة في عائلتنا تسحب ورقةً من بين هذه الأوراق. وعلى الجميع القبول بالمكان المسجّل على هذه الورقة.

حدث واختلفنا في يوم الجمعة هذا.

أبي يريد الذهاب إلى بيت أخيه، وأمي تفضّل بيت أختها، وأخي (أيهم) يريد زيارة جدي وجدتي، وأنا أريد زيارة حديقة مدينتنا الكبيرة المسماة بـ (حديقة العظماء). وأختي (أحلام) مصرة على القيام برحلة خارج المدينة.

كتب كلّ منا رغبته على ورقة صغيرة. خلطت الأوراق، وقلت لصغيرتنا نسرين:

- اسحبي لنا ورقة.

- لي شرط: قالت نسرين..

سألناها جميعنا:

=وما هو؟.

ضاحكة أجابت نسرين:

-على صاحب الورقة التي سأسحبها أن يشتري لي قطعة بسكويت وقطعة شوكولاته.

صحنًا جميعاً بفرح:

-موافقون.

أبصارنا مفتوحة على آخرها وهي تراقب يد نسرين التي أخذت إحدى الورقات المطوية وناولتها لأمي.

لم تبتسم كثيراً أمي وهي تقرأ الورقة. هذا يعني أن رغبته في المكان الذي اختارته لن تتحقق.

-ماذا في الورقة يا أمي؟: قلت أنا وأخي أيهم وأختي أحلام.

بصوت لطيف، قالت أمي:
-إنها رغبتك يا (آية).. حديقة العظماء..
بفرح لا يوصف، قبّلتُ نسرين:
-هاه.. هيه.. لك اليوم أطيب قطعة بسكويت
وشوكولاته.

وبسرعة هائلة هرع كلُّ منا ليرتدي ثيابه.
ماما وبابا وأخي أيهم أصبحوا جاهزين..
ونسرين الواقفة على باب البيت الخارجي
تستعجلنا:

-هيا يا آية ويا أحلام. لقد تأخرنا.
بسرعة أخرجُ مع أحلام من الغرفة، وننطلق
مع العائلة.
الطقس معتدل. وشوارع المدينة مزدحمة
بالسيارات وبالناس المنشغلين بعطلتهم.
نسرين تتوسّطُ أمي وأبي، ونحن نسير خلفهم.

من شارع إلى آخر، ونحن نمزح ونضحك. وفي أحد الطرقات استوقفنا زجاج محل ألعاب. كانت خلف زجاج العرض دُمية كثيرة.. قطار صغير يدور حول سكتته.. نمرٌ وردِيّ يستند على سيارة كبيرة و(ميكى) يجلس رافعاً إحدى ذراعيه وكأنه يودّع الجميع. عروسٌ ترتدي فستانها الأبيض الفضفاض تقف وراء القطار الصغير وهي تفتح عينيها الزرقاوين. وفي إحدى الزوايا يركب جحا على حماره بهيئة مضحكة جداً. بينما في مساحة أخرى يقف ثلاثة أبطال من مسلسل الأطفال (افتح يا سمسم).. "أنيس" ممدد في سريره وكأنه يعدّ الخواريف كي ينام و"بدر" المسكين ينظر في وجه "كركور" ..

- أوه.. إنه أنتَ يا أيهم: قلتُ لأخي وأنا أشير إلى كركور.

بعجل قال لي أيهم:

وذاك أنت يا آية.

ثم ضحك وهرب بعدما أشار إلى جحا وحماره.

ضحكنا جميعنا واجتزنا الشارع.

لم نشعر كيف وصلنا الحديقة..

فعلاً إنها حديقة عظيمة.. بأبها منقسم إلى
نصفين: واحد للدخول، والثاني للخروج. أعمدة
أسطوانية تنتصب خلف الباب الكبير. مدخل
مرمري على جنبه أشجار ضخمة. الحشائش
الطويلة تتمايل. ولونها الأخضر يتباهى بألوان
الأزهار، منها البنفسج، والأقحوان، والقرنفل،
والشقائق، الزنبق، والياسمين الأبيض والأصفر،
و.. روائح عطرية يختلط فيها عبير الريحان مع
عبير الورد مع روائح أشجار الزيزفون وهي تدلي
أغصانها المزدهرة.

صوت مياه النوافير يضيف على الطبيعة جمالاً

أخذاً..

زقزقة العصافير في كل مكان.. والفراشات
تطير بخفة عجيبة.

استقبلتنا الحديقة بمنحوتة حجرية، تقف
كشخصية وقورة على قاعدة كتب عليها:
"تمثال الشيخ الرئيس ابن سينا".

انعطفنا نحو اليمين.. أطفال كثيرون يأتون
بصحبة أهلهم لزيارة هذه الحديقة.
أيضاً، يجيء لزيارتها عربٌ وأجانب من
مختلف البلدان.

نعبر مساحة أخرى نصب فيها تمثال الشاعر
"أحمد بن الحسين" المشهور بـ (المتنبي). ورغم
أنه منحوت من حجر، إلا أننا شعرنا بالشرر الذي
في عينيه وهو يتطلع نحو السماء بكبرياء وفخر.
تمثال آخر يقابل تمثال المتنبي.. ولا يفصل

بينهما غير مساحة عشب صغيرة، في وسطها
نافورة ماء. هذا التمثال يقف أمام تمثال المتنبى
متحدثاً.. وكلمات قاعدته تقول: الشاعر (الحارث
بن سعيد الحمداني) الملقب بـ (أبو فراس
الحمداني)..

كل شيء في هذه الحديقة يكاد ينطق..
مازلنا نمشي وكأننا في زمن آخر...
من هذا السحر، يأتينا صوت والدي:

-في زيارتنا السابقة تحدثنا عن حياة (ابن
سينا) و (المتنبى) و(أبو فراس الحمداني)... وها
نحن اليوم نقف أمام تمثال امرأة عظيمة عاشت
جزءاً من حياتها في عصر ما قبل الإسلام،
وقضت الجزء الأخير من عمرها في عهد
الإسلام.

تمثال المرأة ينتصب بشموخ حزين.

قالت أمي:

- لا تقرأوا بعيونكم، اقرأوا لنا يا أيهم المكتوب
على قاعدة التمثال.

يرفع أيهم صوته قارئاً:

=الشاعرة (تماضر بنت عمرو الشريد) الملقبة
بـ (الخنساء)..

-سنتعرف اليوم على الخنساء كشاعرة وأمّ
وأخت، قال أبي وتابع:

=كما قرأتم، فإن اسمها (تماضر) ونسبها
يرجع إلى قبيلة (مضر) العربية. كانت امرأة
ذكية. تتمتع بنسب وجمال وأخلاق عالية،
ولشخصيتها المتفردة، المتصفة بالشجاعة والصدق
والإخلاص والبلاغة، خطبها كثير من الفرسان،
منهم الشاعر (دريد بن الصّمة)، لكنها لم تقبل بغير

ابن عمها (رواحة بن عبد العزيز السلمي) الذي
أنجبت منه أربعة فرسان استشهدوا في معركة
(القادسية) التي قادها البطل (سعد بن أبي وقاص).
يصمت والدي قليلاً، وكأنه يسترجع صدى تلك
الحرب التي انتهت بانتصار جيش (سعد) على
الفرس.

تستغلّ أمي سكوت أبي وتقول:

=ما تزال الخنساء رمزاً للأخوة، فلقد رثت
أخاها صخراً بأبيات يبكي معها الحجر:
يذكرني طلوع الشمس صخراً

وأنكره لكلّ غروب شمسٍ

ولولا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلت نفسي

وما سيكون مثل أخي ولكن

أعزّي النفس عنه بالتأسي

ومع آخر كلمة أنشدتها أمي، نسمع صوت
حركة غريبة تصدر من تمثال الخنساء.. بتعجب
تقول أحلام:

-انظروا.. دمع.. نعم دمع يتساقط من عينيّ
التمثال..

وبينما نحدّق لنتأكد مما قالته أحلام، لا ندري
كيف حرك التمثال يده، ومسح دموعه، ثم تكلم
معنا:

-يسعدني أنّ عصركم لم ينسني. أنا فخورة
بكم مثلما أنتم فخورون بي. لن أدعكم تبحثون عن
سيرتي في بطون الكتب، سأخفف عنكم بعض
الوقت والجهد، فهل تقبلون؟

بأندهاش أجباها:

-وكيف لا نقبل..

- في فترة ما قبل الإسلام، أو ما تُسمّى بـ (الجاهلية)، فقدتُ أخي صخراً ومعاوية نتيجة عادات الثأر التي كانت منتشرة في تلك الأيام. كنتُ أحبهما كثيراً، وكانا يحبّانني كثيراً، وبعد موتهما ساءتُ حالتي، حتى دعاني، يوماً، عمر بن الخطاب (رض)، وقال لي معاتباً:

- ألا تعلمين أنّ أخويك في النار؟.

قلتُ:

-ذاك أطول لحزني، كنتُ أبكي لهما من الثار، وأنا اليوم أبكي لهما من النار. شهق تمثال الخنساء بألم، وامتألت محاجرهِ بالدموع.

مسحتُ أُمي عيني التمثال بمنديلها الورقيّ

قائلة:

-عليك أن لا تحزني إلى هذه الدرجة..

وتذكّري أبناءك الأربعة الذين قاتلوا بمنتهى
الشجاعة إلى أن ماتوا جميعاً بعدما أبلوا بلاء حسناً
في ساح الحرب التي انتصر فيها المسلمون. أتمنى
أن نسمع ما قلته لأولادك قبل ذهابهم إلى المعركة.
يستجمع تمثال الخنساء رباطة جأشه، فيصيح
صوت الخنساء بأمومة حريصة على الإسلام
ونصرته:

- يا بنيّ، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم
مختارين، فإذا ما أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين،
فأعدّوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على
أعدائه مستبصرين.

ازداد خفقان قلب التمثال، وتعالّت نبرة صوته
القادمة من تلك السنين:

- واستشهد أبنائي الأربعة. وحين بلغني خبر
استشهادهم، قلت بكل صبر وحكمة الحمد لله الذي
شرّفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني

بهم في مستقر رحمته.

يقول تمثال الخنساء ذلك وهو يبسط كفيّه
للسماء، فأبسط أنا وأسرّتي أكفنا للسماء، ندعو
ونحمد الله.

وحالما يخفض التمثال يديه، يسألنا:

- هل تعرفون شيئاً عن سوق (عكاظ)؟.

أخاف أن يسبقني أبي أو أمي في الإجابة،
فأسرع قائلة:

- في ذاك السوق كان يجتمع الشعراء لإلقاء
قصائدهم متنافسين.

بإعجاب يسألني التمثال:

- ما اسمك؟

بافتخار أجيب:

-اسمي آية.

- اسم جميل مثل إجابتك. من أين لك مثل هذه
المعلومة؟ هل اكتسبتها من المدرسة، أم من
مطالعاتك، أم من والديك؟

- من المدرسة.. كما أنني أعلم بأنك زرت
سوق عكاظ وأنشدت فيه (النابغة الذبياني) الشاعر
الذي كان يأتيه الشعراء لإلقاء قصائدهم أمامه كي
يسمعوا رأيهم في أشعارهم.

- ما دمت تعلمين يا آية، فماذا كان رأي
الشاعر (النابغة) في قصائدي؟

- بعدما سمعتك، أشار بيده إلى الشاعر
(الأعشى) الملقب بـ (أبي بصير)، ثم قال: لولا
أنّ أبا بصير أنشدني آنفاً، لقلتُ إنك أشعر منه.

ضحك تمثال الخنساء، وانحنى وقبّلني، قائلاً:

- ما أروعك يا عزيزتي آية.

ثم صفّق لي التمثال، فصفق جميع أفراد

عائلي..

وبمودة قال والدي:

- هناك شهادة أخرى من شاعر آخر قالها بعد وفاتك، أظنك لم تسمعي بها.
بلهفة قال تمثال الخنساء:
- من فضلك أخبرني باسم الشاعر وأسمعي رأييه.

قال أبي:

- اسمه (جرير). ولقد سئل هذا الشاعر مرةً:
من أشعر الناس؟ فقال: أنا.. لولا الخنساء.
دمعت من الفرح عينا التمثال وقال:
=أيعقل هذا؟
بانفعال قال أبي:
=وكيف لا يعقل.. كفاك تواضعاً يا إنسانتنا

العظيمة. فحتى الآن، والشعراء يذكرونك.. ثم، ألم
يكن رسول الله (ص) معجباً بشعرك، وكان
يستتشدك قائلاً:

(هيه يا خناس) ويومئ بيده مستزيداً...

تتشعرّ حجارة التمثال وقلبه.. تشعرّ جلودنا..

وبعد هنيهة،

يتسرّب صوت أمي:

=تروى الكتب، أنه عندما جاء (عديّ بن حاتم
الطائي) مع أخته (سفانة) إلى رسول الله (ص)
ليدخلا في دين الله، قال عديّ: يا رسول الله، إن
فينا أشعرَ الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس،
فقال (ص): سمّهم. فأجاب عديّ: أما أشعرَ الناس
فـ (امرؤ القيس بن حُجر)، وأما أسخى الناس،
فـ (حاتم بن سعد الطائي)، يقصد عديّ والده-
وأما أفرس الناس فـ (عمرو بن معد يكرب).

فقال رسول الله (ص): ليس كما قلت يا
عديّ.. أمّا أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو، وأمّا
أسخى الناس فمحمد (يعني نفسه)، وأمّا أفرس
الناس فعليّ بن أبي طالب.

بعدها صممت أمي، هداً التمثال وفي عينيه
تجمّدت دمعتان..

اختفت حركة التمثال، ولم يعد أمامنا سوى
منحوتة حجرية ترمز للخنساء.

بحزنٍ سألت أبي:

-بابا، هل صمت التمثال إلى الأبد؟-

حضنتني أبي بحنان وقال:

-لا تحزني يا آية. لن تصمت الخنساء ما دام
هناك أناسٌ يذكرونها، ويحفظون أشعارها.. كفى
اليوم، وهيا بنا لنعود.

نودع تمثال الخنساء، ونسير في ممرات

الحديقة.

تركض نسرين وراء فراشة بيضاء، ثم تقف
متذكرة:

-متى ستشتري لي البسكويت والشوكولاته،
آية؟

تطمئنها أمي:

-حالما نخرج من الحديقة، سنذهب لشراء ما
ترغبون بأكله.

نقطع القنطرة الضخمة، ونلتف كحلقةٍ حول
أبي الذي يقول:

-بعد كل هذه الحياة المحزنة، والمشرفة
بالصبر والتضحية والشعر، غادرت الخنساء إلى
البادية، حيث قضت بقية عمرها وهي تنشر تعاليم
الإسلام، إلى أن توفّاها الله عام (٢٤هـ) في عهد
عثمان بن عفان رضي الله عنه وعنهما.

-الله ما أجمل حياة الخنساء رغم ما فيها من
آلام: قالت أختي أحلام وأمسكت يد والدي، ومشيا
أمامنا في طرقات الحديقة..

بين مسافة وأخرى، يظهر لنا تمثالٌ لإنسانٍ
عظيم، تقول أمي:

-لابدّ من أن نتعرّف عليهم في زيارات
لاحقة.

في هذه اللحظة،

كنا قد وصلنا إلى الأعمدة الأسطوانية الكبيرة،
وسنغادر حديقة العظماء من باب الخروج.. بعد
قليل،

سيحلّ الغروب..

وسينشد مع الأشجار والأزهار والأعشاب
والتمثال:

يذكرني طلوع الشمسِ صخراً

وأذكرة لكل غروب شمسٍ

ما زال تمثال الخنساء منتصباً في الحديقة..

ما زال الغروب، وكلما زار الأرض، يُنشد...:

ولولا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلت نفسي



هل ترحل مع السنونو؟

(1)

سنونوة مرتجفة تخرج الآن من صفحات قصة
(السنونو وتمثال الأمير).

من فضلك، ساعدها وجفّف ريشها من المطر.
أحضرت منشفة، وجفّفت ريش السنونوة، ثم..
أجلستها في حضنك تدفئها.

تبتسم السنونوة بصعوبة، وتخاطبك:
- أشكرك أيها الطفل اللطيف.

فتقول لها:

- أعرف أنك آتية الآن من مكان بعيد انتصب
فيه تمثال أمير لم يعرف كيف يعيش شجبه إلا
بعدما مات، فطلب منك تمثاله أن تعطي عينيه
وجواهر سيفه وكل ما رصّعه به لعائلات فقيرة،
لكن ما أذكره أنّ تلك السنونوة لم تستطع اللحاق

بسربها، فماتت في ذاك الشتاء قرب قدميّ تمثال
الأمير.. كم كنت نبيلةً ورائعة.. تهزّ السنونوة
رأسها وجناحيها وتتفض ريشها قائلة:

-مثلما عادت روح الأمير إلى تمثاله، شعرت
بعد كلّ هذه السنوات أنّ روعي عادت إليّ.. وكم
أخشى أن أموت قبل أن أسرد لك ما جيئت من
أجله.

تمسح رأس السنونوة بيدك، وتسألها:

-هل تشعرين بالبرد؟ هل أحضر لك غطاء؟
- كلا، لا أريد غطاء، فأنا مرتاحة في حضنك
وأشعر بدفء عارم.
- أرجوكِ لا تموتي: قلت لها بخوف وحزن
وحنان.

- وأيّ كائن حيّ قادر على أن لا يموت؟
تتأمل سؤال الموت الذي سمعته منها، وبعد

لحظة تجيب:

- ربما يستطيع الكائن الحي أن يحيا بعد موته بعمل صالح وبذكر جميل.

- أيهما تفضل أن تكون: شهيداً، أم كاتباً؟.

- الشهيد يبقى خالداً، والكاتب كذلك تبقى كلماته خالداً.. المقارنة صعبة، فكلاهما يحبّ وطنه، لكنني ولو كنت كاتباً لفضلت الشهادة حين يكون وطني في خطر.

ترفرف السنونوة بجناحيها قليلاً وهي سعيدة بإجابتك، وتقول:

- غيرت رأيي، لن أسرد لك الحكاية.

- لماذا؟: مبهوتاً تسألها.

- لأنني سأخذك معي حيث تنتظرنا أحداث القصة.

- هل أخبر أمي وأبي؟.

- أظنهما لن يسمحا لك بذلك.

- ربما يسمحان لي.

كان الليل يغمر مدينتك.. أصوات سيارات قليلة تعبر الشوارع.. معظم نوافذ البيوت مطفأة الإضاءة.. والنساء تحف بالأشجار، فلا يعرف الهواء النوم ولا القمر يحلم بأن ينام..

(٢)

تصل غرفة نوم أمك وأبيك، تنقر على الباب.. تك.. تك.. لا يجيبان. ماذا أفعل؟: تهمس في نفسك، وتعود إلى السنونوة التي تركتها في سريرك قائلاً بألم:

-إنهما نائمان.

-اكتب لهما ورقة.

تكتب جملة وحيدة (والديّ العزيزين، لا تقلقا، لقد ذهبت مع السنونوة)، تضع الورقة على

الوسادة، وتغطّي جزءاً منها كي لا تطير أو تسقط
أو.. وبعدها تدمدم وتتفخ عليك السنونوة، تقول لك:
-الآن، باستطاعتك أن تصبح أيّ كائن تريد،
ولك التصرف في هيئتك حسب احتياجات الموقف.
هيا تحولّ. فقط انو على الكائن وتخيّله، لتصبح
هو. كنت ذكياً جداً، لذلك نويت أن تكون سنونوة،
وما أن تخيلت ذلك، حتى أصبحتما سنونوتين تميز
بينكما نقطة ريش أبيض تتوسط جبينك.
وتحلقان بعيداً في هذا الفضاء الليلي الرائع..
كانت مدينتك تتلألأ كجوهرة مسحورة.
تحلقان بسرعة، وعندما تصلان إلى مكان خالٍ
إلا من أصوات غريبة، تقول لك السنونوة:
-اسمخ لي بأن أعصب عينيك.
-من أين أتيت بهذه القطعة القماشية؟ ولماذا
ستعصين عيني؟
أخذت القطعة من غرفتك وسأعصد عينيك

كلما احتاج الأمر، فهل توافق؟
-لك ذلك.

قلت بهدوء، واستدرت..

عصبت السنونوة عينيك وأمسكت بجناحك، ولم
تشعر إلا وكأنك تهوي إلى بطن الأرض. شعورك
كان صادقاً، فالسنونوة أخذتك إلى بلاد الجان.
وهناك تحت الأرض فكّت عينيك، فرأيت
قصوراً ذهبية ذات قباب، ومن كل جهاتها تحيط
بها المياه.

كان المشهد كجزيرة ذهب متحركة..

جنيات تسبح في المياه.. جنيات تجلس في
المراكب..

جنيات ترقص على الشواطئ وفي القصور..

جنيات تغني وهي تحمل كؤوساً وأباريق
وشموعاً، وورداً وطعاماً.

- أترى ذلك القصر الكبير؟: سألتك السنونوة.
كان القصر الكبير يتوسط القصور، وقبّته
مرصعة، إضافةً للذهب، بمختلف أنواع الجواهر،
كالزمرّد والعقيق والياقوت والماس واللؤلؤ.
- نعم أراه: أجبته مدهوشاً بما تراه عيناك
أول مرة.

- لماذا ترد عليّ ببطء؟ هل غرتك المظاهر؟
- آسف، اعذريني.

- هناك، في قاعة القصر الكبرى، يوجد بابٌ
سريٌّ بهيئة بلاطة زرقاء، ارفعها، وانزل الدرج
المؤدّي إلى سرادبٍ معتم، في نهايته سجنٌ، في
السجن امرأةٌ، حاول أن تخلصها، فإذا ما وصلت،
ارفع حجرة الحائط المواجه لقضبان الغرفة
المسجونة فيها، ودعها تصعد معك المركب،
لنوصلها إلى بيتها في مدينتها.

- وما قصة هذه المرأة؟

-إنها امرأة فقيرة، قالت لحاكم مدينتها: إنك ظالم، فطلب من ملك الجان الأحمر والأزرق أن يعذبها ويسجنها كي لا ترفع صوتها بعد ذلك بأيّة كلمة حق.

-وكيف ستعيدونها إلى مدينتها ما دام الأمر كذلك...؟..

-لقد ثار الشعب على الحاكم وقتلوه وصار حاكماً للمدينة الآن أحد أبنائها الذي لا يعرف أين أمه.

تنوي وتتخيل، فتتحول إلى جنيّة.
وقبل أن تسرع إلى المياه لتسبح، يأتيك صوت السنونوة:

-لا تنس أن ذلك يجب أن يتمّ خلال عشر دقائق.

ترمي نفسك في المياه، وتسبح، تصل الشاطئ،
ولا جنية من هؤلاء الجنيات تنتبه لوجودك. تدخل
بوابة كبيرة.. تعبرها بأمان. تتعطف يمينا ثم يسارا
وإذ بك تسمع صوت إحدى الجنيات:

-أشم رائحة أنسي هنا.

ترد عليها:

-وأي إنسي يجرو على الوصول إلى هنا؟.

ثم تبتعد مسرعا، وتدخل القاعة الكبيرة. كانت
فارغة إلا من مائدة عامرة فيها كل ما طاب ولذ.
ترفع البلاطة الزرقاء، تنزل درجة ثم تغلق
البلاطة، تقفز على الدرج المضاء بقناديل
وقناديل، تركض إلى نهاية السرداب المزين
بشمعدانات مصنوعة من الذهب بشكل يشبه رأس
ملك الجان الأحمر والأزرق، تصل نهاية السرداب
حيث غرفة السجينة وعلى بابها جنية تحرسها،
ولتتخلص منها، تقول لها:

- بعد قليل سيبدأ الاحتفال. جئت لأقف مكانك قليلاً ريثما تشاركينهم بعض الوقت.

- آوه، ما أروعك، منذ زمن لم يتذكّرني أحد. هل أنت جادة فيما تقولين؟: قالت لك الجنيّة الحارسة.

- نعم، فأنا أحبّك، وبعدها أنهيت التزاماتي، قلت آخذ مكانك، وأنت تذهبين للطعام والشراب والغناء والرقص.

تركض الجنيّة بفرح، وصدى خطواتها يغيب، كأنها صعدت الدرج، وفتحت البلاطة الزرقاء، وأصبحت في القاعة الكبيرة.

حينما تشعر بالأمان، تنوي وتتخيل فراشةً، تصير فراشةً قادرةً على العبور من بين القضبان، ترف فوق رأس المرأة الواهنة، المصفرة، فتفرح بوجودك، وتتساءل:

- أيعقل أن يكون في هذا المكان فراشة؟ لابد
وأنها إحدى الجنّيات جاءت لتعذبني.

تنوي وتتخيل، فتظهر أمامه بهيئتكَ البشرية..
كادت تصرخ لو لم تقل لها:

- أرجوك مليكتي لا ترفعي صوتك، فنبقى هنا
سويّةً.

- من أنت؟

- لا وقت لدينا، بعدما أنقذك، سأخبرك. وكلّ
ما أرجوه منك أن تُلزمني الصمت. تنوي وتتخيل،
فتتحول إلى فأس يضرب الحجرة أربع ضربات
من حوافها الأربعة. مكان الحجرة يتسع بصعوبة
لامرأة ضعيفة. تنوي وتتخيل متحولاً إلى ربح
تدفع المرأة إلى المركب الذي تنتظر كما فيه
السنونوة. تنفخ على الحجرة، فتعود إلى مكانها، ثم
تنفخ على المركب حتى يقطع المياه المحيطة
بقصور الجان. وما إن تصل إلى مياه بحرٍ من

بحور الأرض، حتى تحوّل نفسك إلى حوتٍ يسبح
حاملًا المركب. توصلان المرأة إلى مدينتها بعدما
أخبرتها السنونوة في الطريق عن مآل الأمور
وأرشدتها إلى بيت ابنها الحاكم.

تقول المرأة وهي تقف على الشاطئ:

-أرجوكما اذهبا معي، وأقيما في القصر

معنا..

-ليتنا نستطيع.. نتمنى لك كل الخير.

كانت دموع المرأة تغمر وجهها، فهي لم تعد

تعرف أهذا حلم أم حقيقة..

المرأة تركض إلى المدينة..

وأنتما تحلقان فرحين لأنكما أنقذتما هذه

الإنسانة المسكينة.

(٣)

-إلى أين تريد الذهاب الآن؟: سألتك

السنونوة.

ترفّ بجناحيك أكثر، وتقرّب منقارك من أذنّها
قائلاً:

-أريد التحليق في فضاء مدينة السلام.
وبغمضة عين، تصلان إلى بغداد، مدينة
السلام..

هنا.. لماذا الهواء ملوّثٌ بروائح البارود؟ لماذا
الدّمار منتشرٌ في كل مكان؟ لا كهرباء، لا ماء،
ولا غذاء.. معظم الأبنية خرابٌ وأنقاض... أطفالٌ
يبيكون..

أطفالٌ مشرّتون..

وأطفالٌ بين الأنقاض يليحون بأيديهم لكما
ويقولون متحسّرين:

-ليت هاتين السنونوتين تحملان سلامنا إلى
كل الأطفال.

تخفيان دموعكما، وتتجهان إلى فلسطين...
كانت الأراضي هناك، من كل أعماقها،
تصرخ:

- لا أريد هذه البيوت المسبقة الصنع، حتى
دود تربتي يرفضها ويتمنى لو يستطيع أن ينخر
حجارتها. كان صدري متخماً بجذور الحمضيات،
بعرائش الياسمين، بكروم، العنب.. وكان قلبي
يضخ المحبة لجميع الذين قذفوهم مع بيوتهم.
اسمعوا حجارة البيوت المحروقة والمهدمة كيف
تتادي من كان يسكنها.. إنها تتاديهم شخصاً،
شخصاً، إنها لا تنسى أسماءهم أبداً.

رعشة صوتها تغلغت ريشكما مثل أصوات
الأطفال الحاملين بأيديهم الحجارة..

كيف للحجارة أن تضاهي أسلحة العدو؟
تعرجان إلى لبنان. كانت المسافات بغتة

تشتعل بنيران القذائف، فتسقط أبنيةً ويموت كثيرٌ
من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال.

تهربان من القصف وأنتما تصيحان وسط
غبار الحرب والشظايا:

- يا أطفال فلسطين والعراق ولبنان، كل
أطفال العرب والعالم يسلمون عليكم ويدعون لكم
بالنصر والحرية.. فلتعش جراحكم ودمائكم
الأبيّة..

ترفان بعيداً عن أصوات الانفجارات ومشاهد
الرعب - لكنّ بعض قطرات حارّة تسقط على أحد
جناحيك.. لقد جرحت السنونوة..

- يا إلهي، اهبطي على هذه الهضبة لأضمّد
جرحك.

كنتما نزلتما على هضبة قريبة من الجولان
السورية

= أين قطعة القماش التي عصبت بها عيني؟
- هنا: تقول السنونوة وهي تكابر جرحها
والأمها.

تتناول قطعة القماش الملفوفة على رقبتها،
وتتذكر أنّ عليك تطهير الجرح أولاً.. تطير إلى
أقرب نبع ماء، وتتحول إلى كنغر، تملأ جيبك
بالماء، وترجع بقفزات طويلة وسريعة، تغسل
جرح السنونوة، ثم تضمّده...
هي ترتاح... وأنت تتحول إلى سنونوة...
وتعودان للتخليق.

(٤)

- هل نسير في طريق مدينتي؟: سألت
السنونوة الجريحة.

بصوت لا يخلو من الأنين، تقول السنونوة:
- سأخذك في رحلة قصيرة إلى أثرٍ من آثار

بلادك.. إختَر إلى أين تريد الذهاب: إلى أهرامات
مصر؟ أم إلى قلعة حلب؟ أم إلى بتراء الأردن؟ أم
إلى غار حراء؟ أم..

- كل ما ذكرته أحبّ مشاهدته، لكنني أرغب
كثيراً في زيارة الأهرامات.

مراكب عديدة كانت تسير في نهر النيل
الأسطوريّ.

ما زال القمر يضيء مصر كساحرٍ قديم.

ما زالت القاهرة تضجّ بالحركة، والاسكندرية
تتحدث مع البحر الأبيض المتوسط.

وما زالت الجيزة تجلس مثل امرأةٍ عجوز
تحضن الأهرامات وأبا الهول.

تطيران فوق صحراء الأهرامات. تتعب
السنونوة وتقول لك:

- هيا نسترح قليلاً على سنام هذا الجمل.

أنتما الآن سنونوتان جميلتان وغريبتان
يحملهما الجمل المزيّن بزينةٍ تراثيّة، ويمشي في
هذه الصحراء..

كأنّ الأهرامات، هنا، لا تصمت عن سرد
سيرة الفراعنة، والرياح والرمال الحارّة تنقل
كلامها إلى أبي الهول الذي يهزّ بين فينةٍ وأخرى.
أسرار كثيرة مدفونةٌ في هذه الأهرامات،
ومفاتيحها ما زالت في زمنٍ مضى، وفي عيني
أبي الهول، وفي الحكايا التي لا تنطق بها
الصحراء للمقيمين والزائرين. كان السائحون من
عرب وأجانب يتصورون مع هذا التاريخ العريق.
واحدٌ منهم رغب بصورة مع الجمل الذي تقفان
على سنامه.

- هل نظير؟: تستفهم من السنونوة التي تهزّ
رأسها كإشارة إلى عدم الطيران.
تأتي سائحةٌ أخرى لتستأجر الجمل، فتلكزك

السنونوة بجناحها وتقول:

- هيا.. ألم تكتف بهذه الزيارة؟.
- أرجوك، دعينا هنا بضعة أيام.. أريد رؤية الرسوم والنقوش، المعابد، والمومياءات
- ماذا..؟ وأهلك؟ هيا لقد تأخرنا.. ألا تري كيف بدأت الشمس تلد شروقاً جديداً؟
- كانت الشمس الحمراء المحاطة بهالة برتقالية تشقّ طريقها عبر السماء الكحلّية والزرقاء، وتزور آثار الجيزة.

بغنةً، تسأل السنونوة:

- هل أستطيع أن أتحول إلى شمس؟
- لماذا؟
- كي أشرق كلّ يوم على وطني كله، على الأرض كلها، فأظهر للناس الطيبين، وأخفّي سنواتٍ عن الناس الظالمين حتى يثوبوا إلى

رشدهم أو يموتوا.

تضحك السنونوة وتقول:

- لا تستطيع ذلك، فممنوع عليك أن تتحول
إلى نجم أو قمر أو شمس، فقط بإمكانك التحول
إلى أشياء وكائنات الأرض.

تتحاوران، وتقطعان المسافات بسرعة.

لم تشعر ا كيف عدتما إلى بيتك، عدتما قبل
صباح ذلك اليوم بقليل..

(5)

تدخلان من النافذة التي خرجتما منها.

تجلس السنونوة على سريرك.

تنوي وتخيّل أن تعود إلى هيئتك الإنسانية...

عدت إلى ذاك الطفل الجميل.. طويت الورقة
التي كتبتها لوالديك، وضعتها على طاولتك، ثم

تمدّدت على سريرك قرب السنونوة التي دمدت
ونفخت عليك ساحبةً منك طاقة التحول..
وعندما نمت، غطّتك السنونوة كما تغطّيك
أمك، ورفرفت لتغيب تحت الكلمات.
-لن تموت هذه المرة السنونوة:
جاءك صوتٌ غامضٌ في الحلم.
يتكرر الصوت في حلمك، فتري نفسك تسأل:
-أحقاً؟ لكن كيف وكل نفس ذائقة الموت؟
-لن تموت السنونوة لأنك والكثير من الأطفال
معك، ستقروون قصة السنونوة بشوقٍ دائم.



هامش:

- مازال صوتٌ غير مفهوم يأتي من مكان بعيد، من
جبل، أو من مغارة، أو من بئر.. ربما أسمعته وحدي،
لذلك سأترجم لكم ما يقول:

- أطفالي الأعرّاء، انتبهوا، فطيفي يرفّ تحت كلّ السطور.
- هل أخبركم أم أنكم حزرتم؟. تقولون:
- عرفنا.. إنه طيف السنونوة.
- بالفعل إنه طيف السنونوة، فلا تمسكوا ريشها، بل اتبعوها إلى أول الحكاية.



البلبل والساحر

هناك،

في تلك الغابة السحرية،

كانت العصافير ترقزق، والضفادع تتواثب،
والأشجار المتنوعة تنتصب بشموخ، والنهر يمشي
مع مياهه ليسقي الغابة، والبحيرة الواسعة تتسلى
مع الإوزَ والبطَ والبجع..

في تلك الغابة السحرية،

كانت السناجبُ تتسلَّقُ أشجار البلوط،
والفراشات ترف، والنمل يعمل مثل جيشٍ دؤوب،
والنحلُ يئزُّ بين مختلف الأزهار.

حيوانات هذه الغابة كلها ونباتاتها كانت
مُتصادقةً ومُتحابّةً.

وذات يوم،

جاء إلى هذه الغابة ساحرٌ كان قد ربط شاباً
بحبالٍ قويةٍ إلى إحدى شجرات البلوط.

أخرج الساحر مندبلاً وصحناً وضع فيه بعض
النباتات الغريبة، ثم رشَّ فوقها موادَّ حمراء
وزرقاء وصفراء، ثم أشعل ما وضعه في الصحن.

وحين هدأت النار، وضع الساحر المندبل فوق
الصحن، غطى أجزاءه كلها وهو يدممُ بكلماتٍ
غير مفهومة.

هيئة الشاب تدلُّ على أنه أميرٌ ما...

السناجب الآن خائفة..

والأشجار صامته تنتظر ما سيحدث..

أنهى الساحر شعوبته، حمل الصحنَ بيديه،
وبضحكة خبيثة قال للأمير:

-دعنا نرَ بعد الآن كيف ستُتأفُسني على
الزواج من الأميرة؟

بسخرية، قال الأمير:

-أتظنُّ أنَّ أميرتي ستقبل برُجلٍ مثلك ليكون
زوجاً لها. أنت مجردُ ساحرٍ، حاقِد، ولئيمٍ، وحاسد،
وشريرٍ.

ردَّ الساحرُ بكراهية:

-دعنا نرَ ما يفيدك كرمك وشجاعتك وأخلاقك
وأنت في هذا الموقف.

ينتقم الساحر أكثر، فيقول له الأمير:

- لا يجدر بك أن تغدر. فُكَّ وثاقي، ولنتبارز،
وحين تغلبنى تكون الأميرة لك. قفزت السناجب
لتقرض حبال الأمير، لكنّ الساحر كان أسرع..
رش ما في وعائه على الشاب الذي صار بلبلاً
أمسكه الساحر فوراً، وصرخ في وجهه:

- لن تعود إلى هيئتك إلا إذا استطعت أن
تحرق شعراتي الثلاث المدفونات في أودية ثلاثة.
لا أعتقد أنك ستعرف كيف تجد وادي الجماجم،
ووادي العفاريت، ووادي الجحيم. لذلك، ستبقى
بلبلاً يموت بعد ثلاثة أشهر.

ثم أطلق الساحر البلبل، وقهقه حتى ارتمى
على الأرض، ثم نهض، وقف في صحنه، وضع
المنديل على رأسه، ودور جسده والصحن، ثم
اختفى.. ولم يبق مكانه سوى عمود دُخان.

حلق البلبل بصعوبة، وقف على غصن شجرة
البَلوط، ثم نزل إلى النهر، شرب منه قطراتٍ

صغيرةً جداً، وارتفع قليلاً في الهواء ليحطّ على
ضفة البحيرة التي ماجت ببطها وإوزها وبعجها.
كانت دمعات البلبل تختلط مع مياه البحيرة.

أكبرُ البجعَات تقترب من البلبل، تنفضُ ريشها
من الماء، تهزُّ رأسها، فتصطفُّ وراءها البجعَات
والإوزَات والبطَّات كفرقة (باليه) عالمية،
وما إن تستديرَ البجعةُ إلى صديقاتها، حتى يبدأن
الرقص... .

وقتٌ قصير، وتجتمعُ السناجب والأفاعي
والضفادعُ والعصافير والفراشات والنمل والنحل،
تجتمع حول البلبل وترقص.. .

أشجار الغابة تُخاطب الأمير مُنشدَةً:

- ارقصْ أيها البلبل، نحن سنساعدك.

يضحك البلبل، وبيطء يُحرك جناحيه، ثم
بسرعةٍ يُحرِّكُهما، ثم يرقص ويغني.. الغابة بكل

ما فيها ترقص وتغني..

وما إن يتعب الجميع، حتى تشير أكبر
البجعات إلى فرقتها، فتتوقف عن الرقص والغناء،
ومثلها تفعل أوراق الشجر وجذوره، والزهر،
والعشب، ومياه النهر والبحيرة.

من هذه السكينة المحببة، يأتي صوت أكبر
البجعات لطيفاً:

-أنا ساحرةٌ بهيئة بجة، ولا أستخدم سحرى
إلا من أجل الخير، لذلك، فأنا أملك طاقةً تتغلبُ
على سحر هذا الساحر الشرير.. طبعاً يسعدنا أن
تبقى بلبلاً صادقاً في غابتنا، لكننا نريدك أن تعود
إلى مملكتك أميراً لتتزوج من أميرتك، وترجع
بصحبتها لزيارتنا.

ثم رفعت أكبر البجعات صوتها سائلةً بقيّة
أصدقائها من حيوانات وأشجار ونباتات.

-أليسَ كذلكَ يا أحبَّتي؟

بصوتٍ مُنغمٍّ أجابَ الجميعُ:

-نعم، هذا صحيح.. نحن نحبُّ البلبِل، لكننا
نحبُّه أكثرَ حينَ يرجعُ إلى هيئتهِ الإنسانيةِ.

بعد ذلك،

اقتلعتُ أكبرُ البجعَات ريشةً من جناحها
الأيمن، وريشةً من جناحها الأيسر، وريشةً من
تاجها، ثم دعت البلبِل للاقتراب منها قليلاً.

الآن، بين البلبِل والبجعة مسافةٌ كخطوةٍ بَطَّة.

تعطي البجعة ريشاتها الثلاث لللبلب مُحذرةً:

-إياك أن تفقد أثناء الطيران إحدى هذه
الريشات، لأنَّ فيهنَّ نجاتك. اتبعْ هذا السنجاب،
(وأشارتُ بجناحها الناصع البياض إلى سنجابٍ
صغير، خفيف الحركة)، سيوصلك إلى وادي
الجماجم، ستدخله وتُشعل فيه ريشةً، ستجد هناك

من يساعذك، ويهديك إلى مكان شعرة الساحر،
أحرقها بالريشة. عليك أن تفعل ذلك في وادي
العفاريت ووادي الجحيم.

سأل البلبلُ:

-والسنجابُ، ما مصيره؟ هل سيبقى معي؟

أجابت البجعة:

-لا، السنجاب سيوصلك فقط إلى وادي
الجماجم، ويعود إلى غابتنا.

رفرف البلبل بجناحيه فوق كل الغابة منشداً
وكأنه يودّعها، ثم حلق تابعاً السنجاب الرشيق.

السنجاب يقفز بسرعة.

والبلبل يطير فوقه...

قطع الاثنان الغابة وأراض كثيرة موحشة، ولم
يتوقف السنجاب الظريف إلا على هضبة مرتفعة

مليئة بأشجار الجوز والسنديان، ولاهثاً، قال للبلبل
الذي حطَّ قربةً:

-هناك وادي الجماجم. لا تنسَ ما أوصتكَ به
البجعة.

دمعتُ عينا البلبل وعينا السنجاب وهما
يتودَّعان.

عاد السنجاب من حيث أتى...

وحلَّق البلبل وراء الهضبة..

وصل إلى وادٍ مليءٍ بجماجم بشرية وحيوانية.

كان المشهد مرعباً ويحتاج إلى بلبل قويّ
القلب.

وما إن أشعلَ البلبلُ الريشةَ السحريةَ الأولى،
حتى طارت، وحطَّت على إحدى الجماجم،
حملتها، وعادت إلى البابل. حدَّق البابل في
الجمجمة، فرأى شعرة الساحر في محجرِ الجمجمة

الأيسر، أخرجها بمنقاره، وحرقتها..
احترقت الشعرة الأولى، ففقد الساحرُ الجالس
في قصر الأميرة ساقيه.
تنطفئ الريشة. وتقفز الجمجمة أمام البلبل قائلة:
- اتبعني..
بدهشة وبفرحٍ غامر، يتبع البلبل الجمجمة..
ويقطعان مسافات من الأحراج.. يصلان إلى
منطقة صحراوية..
وهنا، تتوقف الجمجمة، تفتح فكّيها وتقول:
- وراء تلك الصخرة يقع وادي العفاريات.
سأتركك وأعود إلى وادي الجماجم.
يودع البلبل الجمجمة العائدة بسرعة إلى
واديها. ثم يحلق باتجاه وادي العفاريات. من
الوادي.

كانت تصدرُ أصواتُ أشباحٍ كثيرة، بعضها
يصرخ، بعضها يغني، بعضها يولول، بعضها
بيكي، بعضها يضحك، وبعضها يعزف..

يرتعش ريش البلبل من أصوات وتحركات
الأشباح، ويتذكرُ أنّ عليه إشعال الريشة الثانية.
يُخرج البلبل الريشة ويشعلها، فتطير، وتنزلُ
في الوادي.

وعندما تصبح الأشباح واضحةً، يقول
زعيماً:

-هيا يا عفاريتي لنهربُ قبل أن تحرقنا الريشة
المسحورة..

يهبط البلبل وقبل أن يصل إلى الريشة الواقفة
على صندوق صغير، يهرب الجميع، يفتح البلبل
الصندوق، ويُخرج منه الشعرة الثانية.. يحرقها،
فيفقدُ الساحر الممددُ في قصر الأميرة جذعه

الفوقيّ ولا يبقى منه غير رأسه.

عفريت صغير كان يتلصصُ.. رآه البلبل،
فطار إليه... ركض العفريت هارباً. فصاح عليه
البلبل:

- لا تخف، لن أؤذيك.. فقط، أريدك أن تدلني
إلى وادي الجحيم.

بخوف شديد، يرافق العفريت الصغير البلبل
إلى واد، نباتاته تصدر أشعةً، وأشجار بعضها
يحرق بعضاً...

هنا، يتوقف العفريت قائلاً بصوتٍ مُرتجف:

- هذا هو وادي الجحيم.. إذا اقتربت أكثر
فسأحترق.. أرجوك أن تعذرنى.

بمودّة يقول البلبل:

- أظننا أصبحنا صديقين.. أشكر لك حُسن
صنيعك..

بفرح يقول العفريت الصغير :

-إلى اللقاء إذن..

ثم يركض بكلّ قواه راجعاً إلى وادي
العفاريت.

ينظر البلبل إلى الأشجار المشتعلة، إلى اللهب
وهو يتراقص كجحيمٍ حقيقيٍّ في هذا الوادي.

بتفاؤل، يُشعل البلبل الريشة الثالثة، فتتطفئ كلُّ
نيران الوادي.. ويخمد جحيمه.. تطلق ريشة
البجعة السحرية إلى صخرة سوداء، ترحلها،
فتظهر الشعرة الثالثة.. وما إن يحرق البلبل شعرة
الساحر الأخيرة، حتى يتبخّر رأس الساحر من
قصر الأميرة فيموت...

وما إن يموت الساحر، حتى يعود البلبل إلى
أمير..

ريشة البجعة المنطفئة تحمل الأمير،.. تحمله

مثل عصا الساحرة التي نعرفها من خلال الحكايات،
وتطير به.. تقطع مسافات بعيدة.. وتُوصل الأمير
إلى قصر أميرته بسرورٍ يستقبل الملك والملكة
وابنتهما الأمير الشجاع الذي يدعوهم للذهاب معه
إلى مملكته حيث ينتظره والده.

وفي الطريق،

يتحدّث الأمير عن كل ما صادفه.. فتفرح
الأميرة بعريسها الفارس.

يصل الموكب الملكي إلى قصر الأمير.

كان القصر جميلاً ومُبهرًا، تحيط به حديقة
رائعة، في وسطها بحيرة، على سطح البحيرة،
وردّ ملوّنٌ وأوراق شجر..

يدخل الأمير محيياً والديه اللذين ينهضان
لاستقبال الأميرة ووالديها.

كان لقاءً حاراً ومبهجاً..

ترك الأمير الملكين والملكتين وعروسه في
قاعة الاستقبال، وذهب للاستحمام، وبعدما انتهى
من ذلك، ارتدى ثيابه التي اشتاق إليها، واستأذن
الأهل باصطحاب الأميرة إلى حديقة القصر.
عبر الاثنان رواق القصر إلى البوابة..
نزلا الدرج المرمري.. وقفوا بين أشجار
الحديقة ينظران إلى السماء..
ثم، مشياً إلى البحيرة..
حين رأى الأمير البحيرة،
ترك ذراع عروسه، وصاح ببهجة:
يا إلهي كيف حضرتتم؟ آه، ما أروعكم.
على سطح البحيرة،
كان يرقص البطُّ والإوزُّ والبجعُ بقيادة بجعتهم
الكبيرة.

على حوافي البحيرة،
كانت تصطفُ الأشباحُ وفي يدٍ كلِّ واحدٍ منها
بأقّة ورد.

وفي وسط البحيرة،
كانت تتلألُ شمعةٌ مشتعلةٌ داخل جمجمةٍ
ترقص..

لم تخف الأميرة من ذلك، فأمرها حدثها عن
أصدقائه المخلصين.

بخطواتٍ رشيقةٍ تقدّمت الأميرة مُحبيّةُ الجميع
الذين ردّوا عليها بتحيّةٍ سريعةٍ، وبكلماتٍ جميلة:
-مباركٌ أيها الأميران. رغبتنا بتهنئتكما قبل
يومٍ من موعد الزفاف، فهل تقبلان؟
بسرعةٍ ردّت الأميرةُ والأمير:
-ما أسعدنا بذلك...

ثم بدأ الجميعُ يرقصُ ويغني...
حتى اليوم،
ما زالت الغاباتُ ترقصُ وتُغني مع البلابل
متناقلةً هذه القصة...



سؤال البرتقالة

تروي إحدى الحكايات:

أنّ علاء الدين ضيّع مصباحه في أثناء تجواله
بين المدن والبلاد..

من لحظتها،

قرر علاء الدين أن لا يعود إلى قصّته (علاء
الدين والمصباح السحري).

من لحظتها أيضاً،
لم يعد المصباح المفقود مسحوراً بسبب غياب
صاحبه..

وبقي الماردُ مأسوراً في المصباح ينتظر من
يخلصه من سجنه ليعيش حياته العادية.. وفي يومٍ
من الأيام،

قررت أن ترتب غرفتك، لتأخذ شكلاً آخر.
نقلت طاولتك وكرسيك إلى الزاوية.

ووضعت صندوق ألعاب قرب المكتبة.
اخترت دُباً أبيضَ وأجلسته على السرير.

ثم بدأت تعيد النظر في ترتيب الكتب. كان
أبوك قد أهداك قطعة برونزية صغيرة بهيئة
(المسجد الأقصى). تمسح القطعة بمنديل نظيف،
وتقول مُتَحَسراً:

-متى ستتحرر فلسطين لنزورها ونُصلي في

المسجد الأقصى؟... يا الله، لقد مضى وقت طويل
على احتلال فلسطين، منذ عام (١٩٤٨م) المشهور
بعام النكبة، ونحن نعلم برؤية فلسطين حُرَّةً، أبيةً.
تمسح دمعاتك الطافرة من عينيك، تبعد لعبة
(السنفور) الصغير من مكانها.

تنفض الغبار عن الكتب، وإذ بك تلمح
مصباحاً عتيقاً وجدته ذات يوم في حديقة بنايتكم.
وقتها، كنت عائداً من المدرسة، فرأيت شيئاً يلعب،
حملته، وفرحت به.. وقلت لأبويك:

-انظرا... لقد وجدتُ هذا المصباح الأثريَّ
في حديقة المبنى..

قالت أمك:

-أرني.. فعلاً إنه جميل. سأضعه في الصلاة
قرب ذلك الصحن الصيني..
فورا قلتَ لأمك:

-أتمنى أن تتركه لي، لأضعه في مكتبتي..
وكان لك ذلك.

وها أنت تخرج المصباح من رف المكتبة..
تجده شاحباً، فتمسحه.. بسرعة تفركه كي يسترجع
لمعته وبريقه.
وبغته،

تسمع صوت أنين، ثم صوت حركة، ثم يخرج
دخان ضبابي ويقف أمامك..

ماردُ المصباح يقف ويبيده برتقالة، وبصوت
جميل يقول لك:

-شبيبك لبيك، خادمُ مصباح علاء الدين بين
يديك.

فتقول له مستغرباً:

-أحقاً أنت هو، أم أنك لعبة تمازحني.

المارد الذي لم يكن ضخماً، أجابك:

-حقاً، أنا هو.. أنا مارْدُ المصباح أيها الطفل
الذي يحب وطنه العربي.
بفرح شديد تسأله:
-هل لي أن أطلب شيئاً؟
-يسعدني أن أنفذَ كلماتك، لكنني لا أستطيع
الآن.

-لماذا لا تستطيع؟
-لأنَّ وجودي فقدَ مفعولَه السحريَّ منذ
ضيّعني علاء الدين..
-إذن، لماذا تقول: شبَّيكَ لبيِّك؟

-اعتدتُ على أن أقول ذلك حين أخرجُ من
المصباح، وها أنا خرجت الآن للمرة الأخيرة في
حياتي، فقط من أجل أن أعطيك هذه الهدية.. فأنت
من أنقذتني، وقد عاهدت نفسي على أن أعطي هذه
البرتقالة لمن سيفكُّ أسري ويحررني من المصباح

الذي لن أعود إليه بعد الآن أبداً..
ثم، وضع المارد البرتقالة على الطاولة،
واختفى...

تدلك المصباح بسرعة علّ المارد يعود
للظهور، لكنه لا يفعل... كأن صادقاً في ما يقول.
تُرجع المصباح إلى مكانه في المكتبة. وتجلس
على كرسيك متفحصاً البرتقالة.

تمدّ يدك إلى البرتقالة الالامعة معتقداً أنها من
ذهب.. تضعها بين كفيك، فتدلكها قليلاً، فتتحول
إلى فتاة فلسطينية، تلبس عباءة، وتضع منديلاً على
رأسها، تسألك:

- هل خفت مني؟

- خفت قليلاً.. ليس منك، بل، من حضورك

المفاجئ.

- هل تستضيفني مدة قصيرة؟

-بالتأكيد، تفضلي واجلسي على هذا الكرسي،
وأنا سأحضر كرسيًا آخر من الصّالة.

-أين أسرتك؟

-لا أحد في البيت غيري. فأمي وأبي ذهبوا
لزيارة عمّتي.

تسألك الفتاة:

-هل لديك وقتٌ لنتحاور؟

بابتسامةٍ عذبةٍ تُجيبها:

-نعم، فأنا مشتاقٌ لمعرفة كلِّ شيءٍ عن
حياتك.

تتنهّدُ الفتاة وتقول:

-أنا ابنةُ شجرةٍ وفيّةٌ بقي جذرها في فلسطين.
رعتني والدتي شجرةً البرتقالِ رعايةً كريمةً،
سقتني من نسغها الذي شرب من دمّاء الشهداء.
وتساعدت مع أوراقها في عمليّة التركيب الضوئيّ،

فكبرتُ إلى أن أصبحتُ هذه البرتقالة.
تشهق الفتاةُ بألمٍ وكأنَّها تبتلع دموعاً وحسراتٍ
كثيرةً، ثم تتابع:

-لقد طردني الصهاينة من أرضي مع كثيرٍ
من الفلسطينيين. عبرت لبنان إلى سوريا حيث
وجدني مارد المصباح، وأخذني إلى علاء الدين
الذي قال له أدخلها معك إلى المصباح.. منذ زمنٍ
وأنا أقيم في هذا المصباح. ولم أكن أسمع غير
أنين المارد، وهو يقول: سأعطي هذه البرتقالة
هدية لمن سيحررني..

-إذن، أنت هديتي الغالية.. وستقيمين معي،
ومع أسرتي.. هل تعجبك مدينتي؟ بصوت مجروح
تقول الفتاة:

-كنت أتمنى أن تكون فلسطين مستقلةً، لتكون
(القدس) أو (حيفا) أو (يافا) شبيهةً بهذه المدينة
الخلاية.

بترحيب كبير، تقول لها:
-لك أن تعبريها وطنك، ريثما ننجز حلمنا
وتعود فلسطين.
تسمعها تتشد:
بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
فنتشد معها:
ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

وعندما تصمتان، تقول لك:
-أنا أعتبر الوطن العربي كله وطني، لكن، ألا
تشعر بأن سماء وطنك، دائما، هي الأجمل؟
يُخرجك السؤال، فتنهض من كرسيك، وتخطو
باتجاه نافذتك، تفتحها، وترفع بصرك نحو السماء..
الشمس، رغم الحرارة، تبدو رائعة.. و (الكورنيش)
لا يعرف الاسترخاء ولا التعب، ومياهه المتحركة
مع النسائم تظهر مثل لوحة عظيمة لن يكتشف

أسرارها أكبر الرسامين في العالم.
تستنشق نفساً عميقاً، وتعود إلى الفتاة.
لكنك لا تجدُ أيَّ أثرٍ للفتاة.. تبحث في كلِّ
غُرْفِ بيتك، في المطبخ، على الشرفة.. تركض
إلى المصباح. وتدلّكه، لكنّه... لا يُجيب..
تغلق زجاج مكتبك، وزجاج النافذة، وتجلس
على أحد الكرسيين. تشرّد في الكرسي الفارغ
الذي كانت تجلس عليه فتاة البرتقالة، وتتساءل:
- هل كنتُ أحلمُ؟...
وبينما أنتَ شاردٌ تنقلُ بصرَكَ من الكتب إلى
المسجد الأقصى البرونزيّ إلى المصباح، يأتيك
صوتٌ من ذاكرتك، صوت برتقالةٍ حزينة:
ألا تشعر بأنّ سماءَ وطنك
دائماً،
هي الأجمَل...؟...



الفصول المجنونة

في الأزمنة الغابرة،
حيث القرى تتناثر كعقدٍ لؤلؤٍ مفروط...
كانت الفصولُ تمرُّ على البراري والسهولِ
والجبال..
كانت الحقولُ تعلمُ متى سيحلُّ عليها الصيفُ
لتنحصدَ سنابلها الشقراء، ومتى سيقيم فيها الخريف

لتسقط بعض الأشجار أوراقها، ومتى سيعبرها
الشتاء لتفتح ذراعيها إلى أمطاره وتوجه، ومتى
سترقص هذه الحقول مع الربيع.. وحدث في زمن
ما، أن تصارعت الفصول. كان خلافها يدور حول
تبديل الأشهر.. الصيف يريد أن يأتي في أشهر
الشتاء، والشتاء يريد أشهر الربيع، والخريف
يرغب في استبدال أشهره بأشهر الصيف...

واحتد الصراع بين الفصول..

وعندما لم يتوصلوا إلى اتفاق، هرع كلٌّ منهم،
في اللحظة نفسها، إلى الأرض.. فوجئت الحقول
بهذا الجنون..

ونباتاتها وقعت في حيرة هائلة..، والحيوانات
أيضاً..

وحدها بعض الأشجار لم تكثر لهذا التغيير،
كالصبار والزيتون، والدقلى والسنوبر والبسوط
والنخيل والسرو..

غضبت الريحُ من هذا الوضع الجديد، فقررتُ
أن تطرد الفصول كلها.

جلستِ النسائم والعواصف والأعاصير
والزوابع تحت شجرة مشمش في حقل فلاح
عجوز، تخطط لطرده الفصول إلى مقبرة أو إلى
واد، أو حتى خارج الأرض.. ولحسن الحظ، كان
الفلاح العجوز موجوداً لحظتها، وكان قد ورث
طريقة التفاهم مع الريح من والده...

كانت الرياح تتهامس وتخطط بصوتٍ منخفض
حينما اقترب منها العجوزُ محيياً:

-السلام عليك يا رياحنا المباركة.

-وعليك السلام أيها الرجل الوقور: ردتِ
الرياح باستغراب، وهبت واقفة.

-أتمنى أن لا تتفدوا ما شرعتم في التفكير به.

-ولماذا؟ سألتِ الرياحُ بغضبٍ حادّ..

-لأنكم إذا قتلتم الفصول، فسنموتُ جميعاً.. ألا تجدون الإقناع أفضل وسيلة؟:

قال العجوز بحكمة السنين التي عاشها وتعلّم منها ما يصلحُ لكل موقفٍ من مواقف الحياة.

-أنا لا أوافقك: أجابت العواصف والأعاصير والزوابع.

-أمّا أنا، فأرى أن حلّ الفلاح العجوز أكثر نفعاً: قالت النسائم بثقة...

-هل أفتعك مباشرة؟: قالت العواصف والأعاصير والزوابع.

-لا تكونوا شريرين. فكلامه مناسب، لكن، تساءلوا، كيف سنقنعُ الفصول؟

قالت النسائم وعادت إلى الجلوس تحت شجرة المشمش.

سؤالُ النسائم، جعل بقيّة الريح تجلس..

-أُتسمعون لي بمشاركتكم الجلسة؟: سأل
الرجل.

بصوت واحد، قالوا:

-بكل تأكيد.. يُسعدنا وجودك معنا، فأنت
البشريُّ الوحيد الذي يفهم لغتنا. سيطر الصمت
بُرهة... .

كانت النسائم تلتهم حبةً مشمش، والعواصف
تضع في فمها غصناً يابساً أخذته من الأرض،
والزوابع، تحقّق في التربة حاملةً برملِ
الصحارى.. والأعاصير، تنظر إلى العجوز
بتفحص.. ثم تسأله:

-ألديك أولاد؟

-منحني الله ثلاثة شبّان.

-وماذا يعملون؟: استفهمت الزوابع.

-يساعدونني في رعاية الحقل.

- هل هم أذكىاء مثلك؟: بلهجة لطيفة سألتُهُ
النساءم.

-أعتقد ذلك..

-إذن، دعهم يساعدونا في عودة الفصول إلى
أشهرها الطبيعيّة.

-لكم ما تطلبون..

اقترب الصباح ولم يعد العجوز، فقلق أبناؤهُ
عليه.. خرجوا من البيت متجهين إلى الحقل..

لم تكن الطريق بين البيت والحقل بعيدة..
دقائق أخرى، ويصل الشبانُ لاهثين.. فوجئ
الأولاد الثلاثة بأبيهم جالسا تحت شجرة المشمش
وهو يتحدّث مع نفسه.

ركض الشابُّ الكبير وقال:

-سلامتك يا أبي. لماذا تتحدّثُ مع نفسك؟

ثم، فوراً، قال الشابُّ الأوسط:

-أقلقتنا عليكَ جداً. هل أنتَ مزعوج من واحدٍ
منا؟

سأل بترددُ الشابُّ الأصغر:

-بماذا تفكرُ يا أبتَ؟ هل أستطيعُ مساعدتكَ؟
هل أنتَ متعبٌ فأحملكَ إلى البيتِ؟.

ابتسمَ العجوزُ، وقال بهدوءٍ لأولاده:

-اجلسوا..

كانت الرياحُ تُراقبُ ما يجري بين الرجل
وأبنائه الثلاثة مثلما تُراقبُ الفصولُ المجنونة وما
تفعله، نتيجةً أنانيّتها، بالأرض.. فالثلجُ يتساقطُ مع
انتشارِ شمسٍ صيفيّةٍ حارقةٍ، والبراعمُ ستتحولُ إلى
أزهارٍ وثمارٍ لولا وجودُ الخريفِ الذي يُبيّسها
ويُسقطُها بعدَما تصبحُ صفراءً..

كلُّ ذلكُ كان يحدثُ في نفسِ الوقتِ.

ولم يقطعِ الرياحُ عن مراقبتها للفصول

وغضبها منها غيرُ صوتِ الأب وهو يقول:

-في زمنٍ مضى كان يحكم هذه القرية
إقطاعيٌّ ظالمٌ لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً..
كان يضرب الفلاحين، ويطرد بعضهم، ويسجن
البعض الآخر. وفي يومٍ من الأيام، جمع أهل
القرية التي يملكها، وأمرهم:

-يجب أن لا يبقى في هذه القرية من بلغ
الخمسين سنةً فما فوق.

نظر أهل القرية بعضهم إلى وجوه بعضهم
الآخر، كان القهرُ والصمت والظلمُ يمشي في
عروقِ طفلهم وشابهم وكبيرهم ونسائهم وشاباتهم.

قال رجلٌ عجوزٌ يتوكأ على عصا:

-أتطردنا؟ إلى أين سنذهب؟ هل نذهب إلى
الغابات المليئة بالوحوش، أم إلى الصحارى؟
بصوتٍ محروق، قالت إحدى النسوة العجائز:

-إِنَّكَ قَاسٍ، وَبِلا رَحْمَةٍ، إِنَّكَ تَدْفَعُنَا إِلَى هَلَاكِ
مُحَقِّقٍ.

من بين الجمعِ جاء صوت عجوزٍ آخر:

-كيف تطلب منا أن نترك الأرض التي تربيّنا
فيها، ثم كبرنا ونحن نزرعها ونعتني بها عشبةً،
عشبةً، حبةً تراب، وحبّة تراب، قشّة، قشّة، وجزراً
جزراً، وجزعاً، جزعاً.. إنها أمنا أو أحد أبنائنا..
كيف تأمرنا بالابتعاد عن أسرتنا والأرض التي
أفنيها فيها عمرنا وأنت تاكلُ خيراتها، وتظلمُها
وتظلمُنا.

قال عجوزٌ آخر:

-لن نغادر، ولن ننفذ أمرك هذا، ولن...

وقبل أن يكمل العجوز الأخير كلامه، أشار
الإقطاعيُّ إلى حرسه، فالتقوا حول أهل القرية
كسياجٍ شائك.. ثم أشار الإقطاعيُّ ثانيةً، فاقترَبَ
الحرسُ من كلِّ الكبار في السن، وقادوهم إلى

السجن.

وقبل أن يلحق الإقطاعي بحرسه، قال لأهل
القرية مُقهقهاً:

-كلُّهم سيُطردون غداً. ومن سَأجد في بيته
عجوزاً، سأطردُ العائلة كلها معه.

أجهشَ الجميع بكاءً.. الأطفال يبكون آباءهم
وأمهاتهم، أجدادهم وجداتهم، وكذلك الشبان
والشابات. بعضهم ركض وراء الإقطاعي
يَسْترحمه. بعضهم بدأ يدعو الله...

كل ذلك كان بلا جدوى.

عاد أهلُ القرية إلى بيوتهم وكأنهم يمشون في
جنازةٍ جماعية.

لم ينم أهلُ القرية في تلك الليلة. كان القمر
يُرسل أشعةً شاحبة، وكانت الأرض تبكي بصمتٍ
رهيب..

كبار السن كلهم سيُطردون غداً، ما عدا عجوز
واحد ظلَّ في بيته لأنه مشلول القدمين. عندما دخل
ابنه الوحيد عليه، ركض إليه مقبلاً قدميه ويديه
ووجهه. اقشعرَّ جسد العجوز وقبَّل وجنتي ابنه
المبَلَّتين بالدموع، ثم استفسر:

- ما لك يا بُنيّ؟ ماذا يريد الإقطاعيُّ؟ ولماذا
كُلُّ هذا النشيج في القرية؟

- لا شيء يا أبت، لا شيء..

- أعرف أنك لا تُخبئُ عني شيئاً، كما أعرف
أنني رببتك على الصدق.

مسح الشاب دموعه وجلس قرب فراش أبيه،
تتهدَّ بعمق، ثم قال:

- قبضَ الإقطاعيُّ على الكبار في السن لأنهم
لا يستطيعون العمل في أراضيه، وغداً سيُطردهم.
دمعتُ عينا الأب، وحدق في ابنه وكأنه يسأله:

وماذا أيضاً؟

كان الشاب يفهم ما يريدُ والده دون أن يفصح
عن ذلك.

وبجوارح تبكي، وبصوت يبكي، أضاف
الشاب:

-هددَ بطردِ العائلةِ كلّها فيما إذا تبينَ أن لديها
عجوزاً.

بيأسٍ، وبمحبّةٍ، قال الأب:

-خذني الآن إليه.

أغلق الشابُ فمَ أبيه بيده المرتجفة، وصرخ:

-ماذا تقول؟ لا أريد إلا أن يطردني قبلك.

ابتسم الأب بطمأنينةٍ، وحضنَ رأسَ ابنه قائلاً:

-اخفض صوتك، ربّما يكون أحد جواسيس

الإقطاعيّ قريباً من دارنا.

-سأخفيك في القبو الذي نستخدمه للمؤونة،

فهو مكانٌ آمنٌ، ولن يخطرَ في بالِ أحدٍ من أهل
القرية، أو من الجواسيس.

وبسرعة البرق، أعدَّ الشاب مكاناً لوالده في
تلك الغرفةَ وجَهَّزَها بكلِّ ما يلزمه. وجاء الصبحُ
أسود..

في ذلك الصباح طُرِدَ العجائز كلهم، فحزن
الناس حزناً خالداً..

لكنَّ الإقطاعيَّ لم يطمئنَّ إلى خلوِّ القرية من
كبار السن.

فدبَّرَ حيلةً مأكرة. أرسل رجالاً ليقرعوا الطبول
مُنادين على الشبان والشابات لاجتماع طارئ.

حضر الجميع مسرعين إلى ساحة القرية حيث
ينتظرهم الإقطاعيُّ الذي فتح فمه الواسع، آمراً:
-كلُّكم تعرفون أرضي الغربيَّة. غداً، مع
شروق الشمس، أريدكم أن تذهبوا إلى هناك

لتحصدها.

دُهِشَ الجميع من كلام الإقطاعيِّ. تُرى، هل
جُنَّ، أم أنه يقصد ما يقول؟

رجع الشبانُ والفتياتُ إلى بيوتهم مُتَهامسين
حول طلب الإقطاعيِّ الغريب.. ماذا وراء طلبه؟
وما السرُّ فيه؟ وكيف سيحصدون أرضاً صحراويةً
لا تنبت فيها إلا بعض الشوكيات؟

أغلبهم نام بعد منتصف الليل وهو حائر.

تُرى، أية مؤامرة أو مكيده تنتظرهم مع
شروق الشمس؟

وصل الشابُّ الذي يُخفي والده إلى المنزل،
وفورَ وصوله، ركض إلى غرفة أبيه، قبَّله
وعلامات غير مفهومة تعنّلي وجهه.

- ما بك يا بُنيّ؟ -

وأخبرَ الشابُّ والده بذلك الطلب. وما إن انتهى

الابنُ من الحديث، حتى وشوشهُ العجوز بكل ما
عليه أن يفعله، واختتم نصائحه وتعليماته بهذه
الكلمات:

- بعد ذلك سيساعدك فصلُ الصيف.

ما زال الرجلُ الذي يفهم لغةَ الريح
يسرد على أبنائه هذه القصة.. وحينما
وصل إلى كلمة فصل الصيف، هدأ
الصيف، وجلس مع أولاد الفلاح ومع
النسائم والعواصف والأعاصير
والزوابع تحت شجرة الشمس.

أهل وسهّل الجميعُ بفصلِ الصيف،
ثم تابعَ الرجلُ حكايتَهُ:

- ومع شروق الشمس، كان الفتیان والفتيات
جميعاً في الأرض الغربية. وكان الإقطاعي يقف
على هضبة مرتفعة منها، وبصوتٍ حادٍ يقول:

- هيا اعملوا، ما لكم تقفون كالبلهَاء؟ هيا

احصدوا سنابل القمح الذهبية.

كانت عيون الحاضرين ذليلة.. لا يعرفون ماذا يفعلون..

وفجأة،

صاحت إحدى الفتيات:

- هل جُننت؟ ألا ترى أنه لا أثر للسنابل هنا؟
ألم تعد تميّز بين الصحراء والحقول؟

طبعاً، قبض عليها حراس الإقطاعي
وسيضعونها بين القضبان حتى الصباح التالي
حيث سيشهد الجميع طردّها...

وحده ذلك الشاب كان قد أحضر معه منجلاً،
كان يحزم بيده الهواء كما يحزم الحاصدُ السنابل،
ثم يضرب منجله، ليقطع سوق السنابل. حصد
صفاً من الهواء وكأنه يحصد قمحاً حقيقياً. ثم
حصد صفاً آخر من الهواء، وعندما بدأ يحصد

صفاً ثالثاً، صاح به الإقطاعي:

- أنت.. تعال إليّ.

اقترب الفتى غير خائف، ووقف على مقربة
من حصان الإقطاعي.

- ماذا تفعل؟

- أحصد.. أنفذ أمرك.

- أين ما حصدته؟ لماذا لم تأكل منه؟

ذهل الحاضرون. لكن الفتى عاد إلى المكان
الذي وصل إليه وهو يحصد وتابع صفاً ثالثاً من
سنابل الهواء. في هذه اللحظة، اقترب فصل
الصيف من الشاب وأخبره ما الذي سيفعله.

وضع الفتى المنجل على الأرض، ودعك كفيّه
كمن يدعك بضع حبات من القمح، ونفخ عليها
لتطير قشورها، وكمن يأكل حنطة حقيقية يضع ما
في كفيّه من هواء في فمه، ويمضغ..

يتعجب الإقطاعيُّ من هذا الفتى، ويُناديه قائلاً:
- من علّمك كلَّ هذا؟

يحاول الشاب إخفاء ارتبائه، ويجيب:
- كما ترى، لم يُعلّمني أحد.

- وحدك ستأتيني غداً بعد الظهر إلى قصري،
مُحضراً معك أخلصَ صديق، وألدَّ عدو، وخيرَ من
يكتُمُ سرّاً.

وصل الشاب إلى بيته كئيباً، محزوناً، وباكياً..
أدرك والده العجوز المشلول ما يعترى ابنه،
وقال:

- هل استتجتَ شيئاً؟

كانت دموع الفتى الحرّى تقطع إجابته بين
كلمةٍ وأخرى:

- نعم يا أبي لقد استتجتُ أنَّ الإقطاعي يريد
أن يعرف هل هناك رجلٌ عجوز في قرينتنا، أم أنه

قد طردهم جميعاً.

هزّ الشيخ الكبير رأسه، ومُكفكفا دموع ابنه
قال:

-ماذا طلب منك بعد ذلك؟

-كأنك كنت معي. لقد طلب مني أن أحضر له
أخلص صديق، وألدّ عدوّ، وخير من يكتّم سراً.

ضحك الرجل، وقال:

-لا يوجد أسهل من هذا الطلب.

فتح الابنُ شذقيه على مصراعيهما متسائلًا:

-وكيف؟

-هاتِ أذنك.. فأنت تعلم بأنّ للجدران آذاناً.

ومع إشعاعات الشمس الأولى قبل الفتي يد
والده مغادراً إلى حيث أرشده..

ركض الشاب في طريق وعرة ستوصله إلى
جبل فيه مغارة. لاهثاً، دخل المغارة ليقابل فصل

الشتاء.

عندما ذكر الفلاحُ اسم الفصل الذي
سيقابله الفتى، جاء فصل الشتاء إلى
المجتمعين تحت شجرة المشمش،
واستأذنتهم بالجلوس، فرحبوا به ضيفاً
عزيزاً، صافح فصل الصيف، وأصغى
لبقية الحكاية:

- كان فصل الشتاء جالساً على صخرة في
المغارة يهيئ نفسه لأشهره. ضوء المصباح الذي
يحملة الفتى أفرعه قليلاً، وحين أخبره الشاب بأن
والده أرسله إليه ليخبره عن سؤاله، اعتزّ الشتاء
بنفسه، وجلس كحكيمٍ هرمٍ على صخرته مستمعاً
للسؤال:

- مَنْ برأيك أخلص صديق لي، أو لأيّ إنسان؟

- هل لديكم في البيت كلب؟

- نعم، فأنت تعرف أنّ أهل القرى لا

يستطيعون العيش بلا الحيوانات، كالغنم والماعز والإبل والبقر، والدجاج، وخاصة الكلب.

- هل وصلك الجواب؟: سأل الشتاء الفتى.

- بكل تأكيد، أشكرك.

ثم أسرع الشاب إلى النبع المتدفق من الأرض المقابلة للجبل، حيث الربيع يغسل وجهه في المياه الباردة، النقية..

- أسعدت صباحاً يا فصل الربيع: سلم الفتى.

- وصباحك سعيد: ردّ الربيع.

وبينما يحدث الرجل أبناءه الثلاثة والرياح وفصل الصيف والشتاء، بهدوء انضم إليهم فصل الربيع
ليستمع:

سأل الفتى:

- من ألدّ عدوّ؟

نظر فصل الربيع ملياً في الأفق، مُنقلاً بصره
بين السماء والجبل والنبع، ثم أجاب:

- هل في بيتكم خادم؟

- أيعقل أن يكون عدوتنا خادماً الذي نعامله أنا
وأبي كأخ عزيز؟

ودّع الشاب فصل الربيع غير مصدق ما
يسمع، واتجه راکضاً بأقصى قواه إلى المكان
الأخير الذي دله والده العجوز عليه. قطع الفتى
الأحراج ووصل إلى غابة مليئة بمختلف الأشجار،
كان الخريف يجلس على أحد الأغصان العملاقة
يُحصي الأوراق التي سيسقطها. رمى الشاب
التحية على فصل الخريف الذي ردّها بتحية حارة.
هنا، انسحب فصل الخريف الواقف
وحيداً خلف شجرة المشمش، انسحب
من وحدته، ومبتسماً جاء ليشارك
الجميع في الجلسة.

نظر العجوز صاحب الحقل إلى
الرياح المجتمعمة حوله، وإلى الفصول
التي نسيت صراعاها والتفت حولها،
وبسرورٍ أكمل:

مرهقاً: سأل الفتى الخريف:

-قصدتُك لأجل هذا السؤال: مَنْ هو خير من
يكتُم سرّاً؟

قهقهة الخريف. قفز من الغصن إلى التربة،
وأجاب:

-ألم يخطرُ لك بأنّ الحمار لا يفقه شيئاً. لذلك
هو خير من يكتُم سرّاً؟

ثم عاد الخريف إلى الغصن، ودموعه من
كثرة الضحك كانت تبلل وجه الشاب.

بغنةً، صمت العجوز، ولم يتابع القصة.

-لماذا تصمت؟ من فضلك إحك لنا ما حدث

بعد ذلك؟: سألت الرياحُ والفصول.

قال العجوز بكلِّ إصرار:

-لن أخبركم قبل أن تتصالحوا جميعاً.

عندئذ، فهم أولاده الثلاثة أنه كان يتكلم مع
الرياح والفصول، فاعتذروا منه، مُتمنين أن يحكي
لهم ما جرى بعد ذلك.

-حسناً يا أبنائي، سنتابع، ولكن، ليس قبل أن
تتصافى الفصول والرياح.

نهضت الفصول باحترام وتصافحت وقبّل
بعضها بعضاً، وكذلك فعلت النسائم والعواصف
والأعاصير والزوابع. ثم كلٌّ من الرياح والفصول
تعاهدوا على محبةٍ تقاوم كل الظروف.

-هل كلٌّ منكم راضٍ الآن بأشهره؟

بصوتٍ واحد، أجاب الصيف والشتاء والربيع
والخريف:

- بل نحن فرحين بأشهرنا.
- وأنت يا رياح، هل نزعتِ النعمةَ من قلبك؟
- لا نعمة على أحد بعد الآن.
- إذن، إليكم خاتمة القصة:
قبل الظهر، عاد الشاب إلى والده. كان الأب
العجوز يعرف الأجوبة، لذلك، قال لابنه:
- لا وقت لديك خذ الكلب والخادم والحمار
واذهب إلى قصر الإقطاعي.
تماماً، بعد الظهر، كان الفتى قد وصل إلى
القصر.

من الشرفة المزركشة، قال الإقطاعي:
- هل أحضرتَ ما طلبتُهُ منك؟
- نعم، فهذا الكلبُ هو أخلص صديق.
- وما دليلك؟

ضربَ الفتى كلبَهُ بالعِصا، فهربَ بعيداً، ثم
صاحَ عليه الشابُّ رامياً العِصا على الأرض،
قائلاً:

-هاتها..

حملَ الكلبُ العِصا بينَ أسنانه ووقفَ أمامَ
الشاب.

-أخبرك من هو كاتمُ سرِّي؟

-لو لم أكن أريد ذلك، لما طلبتُه منك.

اقتربَ الفتى من الحمار، وهمسَ في أُذنه، ثم
قال للإقطاعي:

-اسأله ما أسرتُ له.

بُهِتَ الإقطاعيُّ من ذلك، وقبلَ أن يتفوّه، قال
الشاب:

-ستعلم الآن مَنْ هو الدُّ الأعداء.

أخذَ الشابُ العِصا من فم الكلب، وضربَ بها

خادمه الذي قفز وصرخ:
- يا سيدي العزيز، إنه يُخبئُ والده العجوز،
المشلول في بيته، في غرفة المؤونة.
باح الخادمُ بالسرِّ، فاصفَّرَ وجه الفتى ليس لأنَّ
الإقطاعيَّ سيطرده، بل، لأنه سيطرُدُ والده.
بلمح البصر، غاب الإقطاعيُّ عن شرفته،
وظهرَ أمام الفتى الخائف.
- هيا إلى بيتكم: بلهجةٍ غير غاضبةٍ خاطب
الإقطاعيُّ الشاب.
كلُّ منهما ركب حصانَهُ ولم يتكلَّما معاً طوال
الطريق.
دخل الشاب على والده شبهً منهارةً، ووراءه
يقف الإقطاعي.
رحَّبَ والدُ الفتى بضيافتهِ وطلبَ من ابنه أنْ
يقدمَ له شيئاً يشربه.

جلس الإقطاعي قرب فراش العجوز، وبحزنٍ
قال:

-اعذرني يا شيخنا المبجل، فقبل الآن، لم أكن
أدرى بأن لكبار السنّ كل هذه الأهمية. تعلمت منك
أن أكون منذ الآن رجلاً آخر، وكم أنا مرهق
الروح من ظلمي للناس ومن طغياني. كنتُ أحسبُ
أنّ الملّك وحده يجعلني قوياً، أمراً، ناهياً.

-ربما سيعذرك أهل القرية عندما ستلبي ما
أطلب منك، فهل تسمح بأن أصرّح عن ذلك؟.
بيديّن تهزّان صينية الشاي، دخل الفتى على
والده وضيّفه.

تناول الإقطاعي كاسَ الشاي شاكراً. استغربَ
الفتى تصرفات الإقطاعي الغريبة.
تُرى، هلا فعلاً هو مجنون، أم أنه أصبح
عاقلاً؟: همسَ الشاب في نفسه، وجلس.

- وما طلبك أيها الشيخ؟

- هل تعدني بتنفيذه؟

- أعدك..

- أن تصبح رجلاً خيراً، وأن تُعيدَ الناس الذين طردتهم جميعاً، وأن تعيش بين أهل القرية وكأنك واحد منهم.

- أهذا كل شيء؟

- نعم، هذا كل شيء.

- لك ما تريد، لكن مقابل شرط.

- ما هو؟

- أن تأتي أنتَ وابنُكَ وتقيمان معي في قصري.

يرغب الجالسون تحت شجرة المشمش بانتهاء الحكاية، لكنّ الرجل العجوز الذي كان يسرّها لأبنائه وللريح وللفضول، ولك، قال:

- وهكذا انتهت هذه القصة التي وجدها يوماً
والذي في أرضه.

- وهل توجد في الأرض حكايات؟: استقهمت
الرياح.

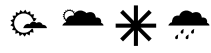
بهدهوء أجاب الرجل:

- لقد وجدها والدي مكتوبةً على لوح طينيّ،
دفنته عوامل الطبيعة، من فصول ورياح وسنوات.
كانت الشمس قد توسّطت السماء، وتلألأت
صافيةً على حقل العجوز الذي نهض مؤدّعاً
الرياح والفصول، سالكاً مع أولاده الثلاثة طريقاً
ستؤدّي إلى بيته.

ومنذ تلك اللحظات،

وبعدما سمعت الفصول هذه الحكاية،

صارت تأتي في مواعيدها على مرّ السنين..



الفهرس

الإهداء	٧
كلمات البحر	١٠
أين أمي؟	٢٥
النايُ والحوريّة	٣٥
الخنساء في الحديقة	٥٢
هل ترحل مع السنونو؟	٧٢
البلبل والساحر	٩٥
سؤال البرتقالة	١١٣
الفصول المجنونة	١٢٤
الفهرس	١٥٥
صدر للكاتبة:	١٥٦



صدر للكاتبة:

- ١- ألياذة الدم / شعر / دار الحوار / ١٩٩٧
- ٢- نشور الأزرق / شعر / دار المرساة / ١٩٩٨
- ٣- أوديسا البنفسج / شعر / مركز الإنماء الحضاري / ١٩٩٩
- ٤- الفارس الأزرق / قصة الأطفال / الهيئة العليا لجائزة قصة الطفل العربي - أبو ظبي / ١٩٩٧ .
- ٥- فتاة التفاحة / حازت جائزة وزارة الثقافة السورية، وستصدر عنها - ٢٠٠٠ .
- ٦- برزخ الذهب / رواية / دار آرام / ١٩٩٩
- ٧- قلق النص / نقد / قيد الطبع

■ ■ ■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الفصول المجنونة: قصص للأطفال/ غالية خوجة-

دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١ -

٤٨ ص؛ ١٧ سم.

١- ٨١٣,٠١ ط خ و ج ف ٢- العنوان

٣- خوجة

مكتبة الأسد

ع- ٢٠٠١/٥/٨٩١

□□